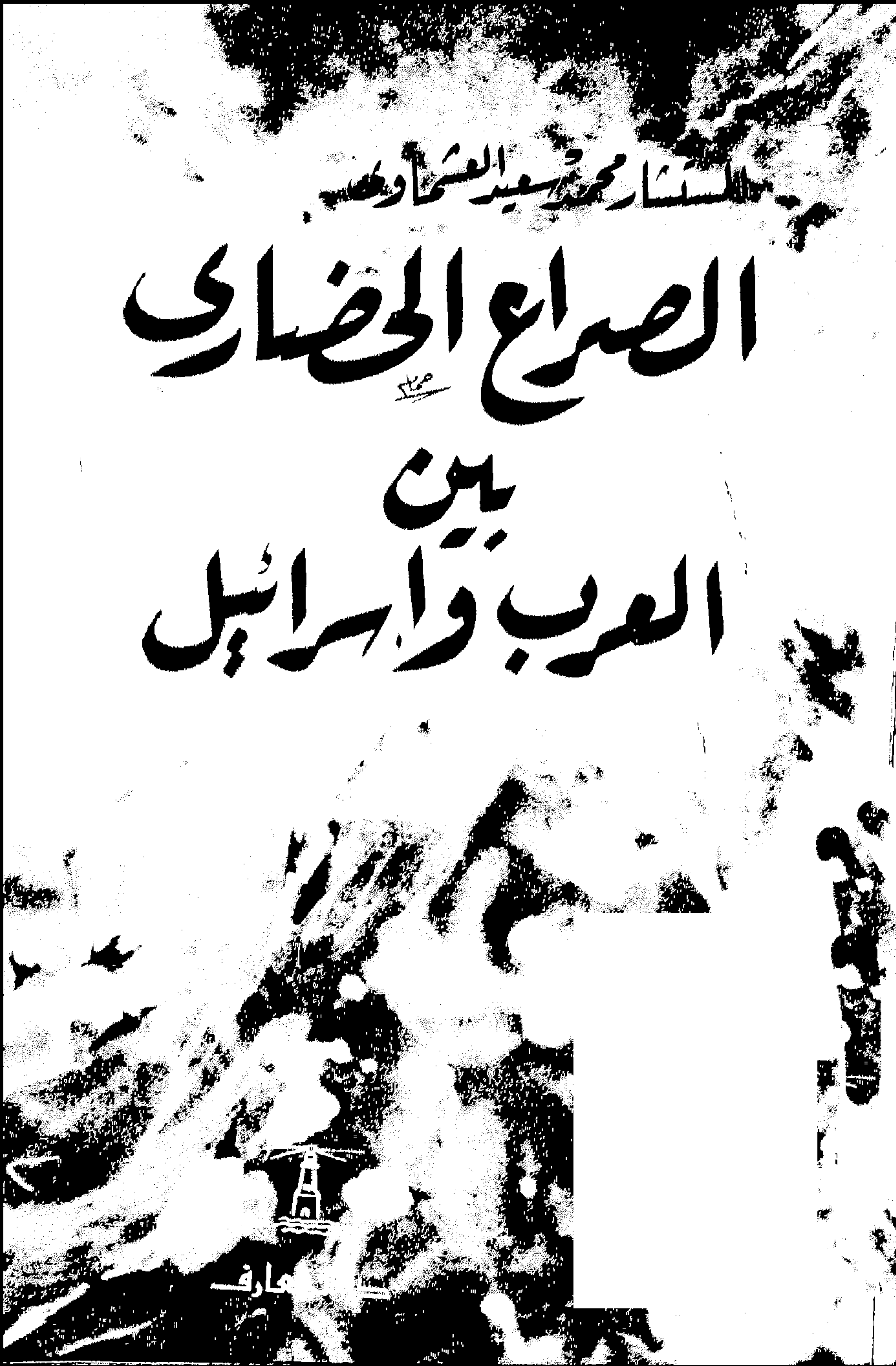
المستشار محمد سعيد العشماوي

الصراع الحضاري بين العرب وإسرائيل



... عارف

المستشار محمد سعيد العشماوى

الصراع الحضارى بين العرب واسرائيل

دار المعارف

تصميم الغلاف : منال بدران

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

مقدمة

درج العرب ، والمصريون منهم ، على معالجة قضاياهم ، مهما كان خطرها ، من خلال الأشكال الأدبية ، كالرواية والقصة والمسرحية ، وما ماثل . وهذه الأشكال ، بطبيعتها وسياقاتها ، لا تتحمل نقاشًا علميًّا رصينًا ، ولا تتقبل جدالاً فكريًّا عميقًا ؛ فلا يرد فيها إلا القليل والبسيط من أفكار متفارقة في أكثر من مكان ، وآراء متباينة في أكثر من موضع ؛ لايمكن جمعها معًا في مكان واحد ، أو ضمها إلى بعضها في مجال محدد . وعندما ظهرت المقالة (أو المقال) مع نشوء الصحافة ، في مصر والعالم العربي ، منذ أواخر القرن الماضي ، ظلّت المقالة ، لفترة طويلة ، تُكتب بأسلوب أدبي إنشائي ، تغلب فيه العبارات اللفظية والصياغات البلاغية ، فتحول دون اتباع النهج العلمي في التحليل والبيان ؛ ومع الوقت ، تحررت المقالة من هذه القوالب الجامدة ، وبدأت تتجه إلى التعبير المباشر والأسلوب السهل والبيان البرقي (التلغرافي) ، بهذا صارت المقالة عاملاً مؤثرًا في التحليل السياسي أو العرض الفكري أو النقد الفني ، لكنها مع ذلك ظلت محدودة بطبيعتها ، مقصورة بظروفها ؛ أقرب ماتكون إلى الإلماح العاجل ، وأدنى ما يمكن إلى الإلماع السريع ، وبهذا لم يعد ثمّ مفر أو مخرج من مناقشة الفكر أو تحليل الآراء في كتب تتسع للنقاش وتنبسط للتحليل .

الكتب تغرى الكاتب بأن يتجه إلى الأسلوب المدرسي (الأكاديمي) في العرض والنهج والتحليل والاستنتاج ؛ وهو أسلوب قد لايستسيغه القارئ العادي فيشيح عنه ولا يقبل عليه ، ومن هنا قامت الحاجة إلى كتابات علمية بأسلوب جديد ، وكتب فكرية بنهج مبسط ، تعرض وتناقش

وتحلل الأفكار الرصينة ، بعيدًا عن المنهج المدرسى (الأكاديمى) ، وبمنأى من الشكل الأدبى ، فظهرت بذلك كتب فكرية ، يكتبها مفكرون ، لايتعملّون المنهج المدرسى (الأكاديمى) ، ولا يتصنعون الشكل الأدبى ، وإنما يكونون فيما يفعلون بيْن بيْن ، فيعالجون القضايا الفكرية العويصة بأسلوب علمى ، ولكنه سهل ميسور .

ولأسباب مختلفة ، فقد ظلت ساحة الفكر العربى مفتقدة إلى هذا النوع من الكتابة وهذا النهج من المعالجة ، وبقيت السيادة للأشكال الأدبية أو للمقالة الصحيفة ؛ مع أن ظروف الواقع العربى تلح على ضرورة وجود فكر عربى ومفكرين عرب ، يعالجون قضاياهم ، من خلال كتب فكرية ، ولا يقصرون جهدهم على الشكل الأدبى وحده ، أو المقال الصحفى دون سواه .

وكانت الحاجة أكثر إلحاحًا فى مجال الفكر السياسى ؛ خاصة مع انتشار الأيديولوجية السياسية عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية ، ونتيجة للمسألة الفلسطينية وتداعياتها على الساحة العربية ، وأثرًا لتنامى العمل السياسى العالمى ، وازدياد أهميته ، ونفاذه إلى الشئون الخاصة فى كل أنحاء العالم ، ومنه العالم العربى . ومع قيام المقالات الصحفية بدور فعّال فى ذلك فإنها لم تعد كافية ، خاصة وأن كثيرًا منها صار أدنى مايكون إلى المقال الإخبارى ؛ يسرد الأحداث المتتالية فى موضوع بعينه ، دون أن يواكب السرد إبداء رأى واضح ، أو بيان رؤية خاصة ، أو تعليل واقع الأحداث ، أو تحليل ما وراء الأخبار .

وحتى إذا ما أبدى كاتب رؤية معينة له فى حدث بذاته فإن الرؤية ، وكذلك الرأى ، قد لا يتسم بالموضوعية أو يتصف بالحياد ؛ ذلك أن لبعض الكتّاب توجهات معينة أو خصومات خاصة أو صلات شخصية ، تؤثر

على حيادهم أو تفقدهم الموضوعية ، حين يؤيدون سياسيًّا معينًا أو يحبذون سياسة محددة ، مهما كان الخطأ الواضح فى هذه السياسة والمآخذ الشديدة على ذلك السياسى ؛ ثم إذا بهـم يعارضـون سياسيًّا آخر أو يناوئون سياسة مغايرة ، مهما كان فى السياسة من صواب وكان لدى السياسى من إقناع .

وقد لجأ بعض الكتاب والصحفيين إلى اتباع أسلوب آخر فى سرد الأحداث التاريخية ، بعيدًا عن عمل المؤرخ الحقيقى ، وبمنأى من الفكر السياسى العام . ذلك أنهم يلجئون إلى الوثائق السياسية التى تفرج عنها بعض الدول ، وخاصة بريطانيا والولايات المتحدة ، بعد فترة تتراوح من ثلاثين إلى خمسين عامًا منذ وقت تحريرها ، ثم يعرضون هذه الوثائق مع تحليلات شخصية أو ذكريات خاصة أو معلومات مستقاة من بعض المصادر . ومع أنه مما لا شك فيه أن نشر هذه الوثائق يحقق فائدة فى جلاء بعض الأحداث التاريخية وبيان ما كان وراءها من خلفيات ، فإن هذا النشر – بما يصاحبه – لا يكفى لتقديم كل الصورة التاريخية ولا يؤدى إلى بيان كل الأسباب التى كانت فى خلفية الأحداث ، وذلك لأسباب عدة (أولا) فالحكومات لاتفرج عن كل الوثائق التى لديها ، وإنما تفرج عمّا لاترى خطرًا فى نشره ، أو ما يكون مضمونه قد بات معروفًا للكثير ؛ ثم تستبقى الوثائق ذات السرية الشديدة أو التى ترى أن مصلحتها القومية تقتضى احتباسها وعدم الإفراج عنها (ثانيا) والوثائق وحدها – حتى ولو كانت كاملة – لاتكفى لتقديم الواقعة التاريخية ، لأن لهذه الواقعة عناصر أخرى غالبًا مالا تثبت فى الأوراق ولا تكتب فى الوثائق ؛ إنما تتكشف مع الأيام أو تظهر خلال التاريخ ،

للباحث المدقق الدؤوب أو لمجموعة من المؤرخين يعملون بكد واجتهاد عملاً تكامليا ، يجمع أعمالهم فى وحدة صحيحة ، أو تراكم هذه الأعمال مع توالى الأجيال حتى ينشأ من التراكم المعرفى فهم صائب (ثالثا) ولأن من يكتب هذه الوثائق أصلاً ، غالبًا مالا يكون محايدًا كل الحياد أو موضوعيًا تمام الموضوعية ، فيكتبها من وجهة نظره هو ، أو نقلا عن مصدر غير أمين أو غير دقيق ، هذا فضلاً عن أن نشر الوثائق يخضع هو الآخر لعملية انتقائية توافق وجهة نظر الكاتب ، فبإخفاء وثيقة واحدة ، أو بإعادة ترتيب الوثائق ، أو بإضافة تعليق وجيز ، يمكن أن تتغير الحقائق تمامًا فى فهم القارئ .

لكل أولئك يكون العمل على إيجاد الفكر السياسى ، ونشره فى العقل العربى من خلال أعمال متعددة ، لمفكرين متنوعى الثقافة ومختلفى الاتجاهات ، ضرورة لازمة ، لا محيص عنها ولا معدى منها ، لوضع أسس التنوير وبذر بذور الثقافة السياسية ، القادرة على الفهم الصحيح والمؤدية إلى النقد السديد ، والتى تساعد على انتهاج السبل القويمة كما تشجع على إبداء النقد الذاتى وقبوله ، من الحكام والمحكومين على حد سواء .

وهذا الكتاب محاولة فى هذا الاتجاه يعالج قضية العرب المصيرية فى القرن العشرين ، وربما فى القرن الذى يليه ، ألا وهى « الصراع الحضارى بين العرب وإسرائيل » ، ولا شك أن المعالجة تتأثر بثقافة الكاتب كما تتلون برؤاه ؛ ومع ذلك فقد بُذل جهد كبير لتكون المعالجة أدنى ماتكون إلى الموضوعية وأقرب مايمكن إلى المحايدة . وهى ، على أى حال ، مناسبة لفتح الأبواب إلى مواضيع كثيرة ، وشق الطرق إلى اتجاهات متعددة ، للبحث والفهم والتقدير .

وقد نشرت أجزاء هذا الكتاب فى مقالات بمجلة « أكتوبر » المصرية خلال شهور يونيو ويوليو وأغسطس ١٩٩٦ م ، هى فى الأصل فصول له ، ويكون إعادة نشرها فى كتاب هو الأصل والهدف ، خاصة وأن قراءة الفصول متتابعة متكاملة يعطى صورة أوضح ويقدم تفسيرًا أدق .

والله الموفق .

١
الصراع فى العصر الحديث

عندما أُعلن عن إقامة دولة إسرائيل فى ١٥ مايو ١٩٤٨م أرسلت بعض الدول العربية ، وعلى رأسها مصر ، فرقًا من جيوشها إلى أرض فلسطين « لتأديب العصابات الصهيونية » كما قيل وأُذيع آنذاك . والتهب الشعور العربى والمصرى ، بالتأييد والفرحة ، حيث كان قد عُبئَ منذ فترة طويلة سابقة لهذا العمل العسكرى ، كما كانت حقائق الأمور مغيّبة عن العالم العربى بأجمعه ، فضلاً عن أن المعلومات الصحيحة والبيانات الدقيقة كانت محجوبة عن كل العالم العربى ، والشعب المصرى ، ولم تكن واضحة أمام أغلب الحكام أو مدرجة فى حساباتهم .

وفى مصر عارض السياسى ورئيس الوزراء الأسبق إسماعيل صدقى هذا الإجراء العسكرى ، وقال إنه كان الأفضل أن ترسل مصر متطوعين غير نظاميين لمساعدة شعب فلسطين فى صراعه العسكرى ضد الإسرائيليين . وثارت ثائرة الناس جميعًا ضد هذا الرأى وصاحبه ، واشتط البعض فاعتبره خائنًا ، لأنه قد خرج على إجماع الشعب الذى ينبغى أن يكون على قلب رجل واحد ، بلا معارضة ولا مناقشة .

وانتهت حرب سنة ١٩٤٨م بهزيمة للجيوش العربية وللجيش المصرى رغم البلاء البطولى لضباطه وجنوده . وبعيدًا عن مناقشة الجوانب العسكرية

لهذه الهزيمة ، فقد كان من نتيجتها ، أو بالأحرى نتيجة الدخول فى حرب نظامية ورسمية مع إسرائيل ، أن انفجر بركان فى الشرق الأوسط ، ووقع زلزال فى المنطقة بأسرها ، أدى إلى تقويض النظم السياسية واضطراب الأوضاع الاجتماعية ، واهتزاز الأسس الفكرية فى أغلب بلدان المنطقة ، منذ ذلك الوقت ، وحتى الآن ، وإلى سنوات بعيدة مقبلة .

ومع مرور الأيام ، ونشر بعض الوثائق التى تتعلق بتلك الحرب ، وظهور بعض الحقائق التى كانت خافية غير معروفة ، تبين أن إسرائيل كانت تعمل بدأب ودهاء وتخطيط على دفع العرب دفعًا لإعلان الحرب عليها فور إنشائها سنة ١٩٤٨ ، وذلك لأسباب عدة :

أولاً : فالقرار الصادر من الأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ بتقسيم أرض فلسطين إلى دولتين : عربية للفلسطينيين ، وعبرية للإسرائيليين لم يرض طموح الإسرائيليين ولم يحقق رغباتهم فى الحصول على الأرض التى رسموا أن تكون لهم ، ومنها صحراء النقب ومدينة القدس ؛ ومن ثم رغبوا فى نقض هذا القرار بطريقة سياسية ماكرة ، هى العمل على دفع العرب إلى رفض القرار بدلاً منهم ، قولاً بالشجب وعملاً بالحرب ، فى الوقت الذى يعلنون هم موافقتهم عليه ، فيحقق لهم ذلك تأييدًا دوليًّا واستقطابًا عالميًا ،حين تستبين المنظمات الدولية ويرى المجتمع العالمى أن العرب يرفضون القرار الدولى ، ويشعلون نيران الحرب ، بينما تعلن إسرائيل قبولها لهذا القرار وتدعو للسلام مع العرب .

ثانيًا : وقيام حرب من العرب ضد إسرائيل ، هو فى تقدير قادتها ، سبب لتماسك الإسرائيليين الذين كانوا أخلاطًا من بلاد متعددة وثقافات

متغيرة ، فعند الخطر سوف يتضامن الجميع بما ينشئ بينهم شعورًا بالقومية ، ويؤسس عندهم روابط بالوطنية ، ويوثقهم بالأرض التى دافعوا عنها ، أما بغير هذه الحرب فكان من المحتمل ، بل ومن الراجح ، أن تتفجر الخلافات وتتصارع الثقافات ، بما يؤدى إلى تقويض الدولة من الداخل وتناثرها فى شظايا بشرية ، وتبددها فى قنابل موقوتة .

ثالثًا : وهزيمة العرب أمام إسرائيل (وفقًا للحسابات التى قدّرها قادة إسرائيل) سوف تحدث انفجارات مدوية ومتتالية فى البلاد العربية ، وخلافات بين قادتها ، وتكريس لجهودها ومواردها نحو الحرب انتقامًا للهزيمة ، مما يعيق عمليات التنمية وتشييد البنية الأساسية والإبدال والإحلال لأدوات الصناعة ، وما إلى ذلك ، الأمر الذى يساعد إسرائيل فى النهاية على أن تكون القوة العظمى فى المنطقة ، عسكريا ثم اقتصاديًّا ثم دوليًّا .

الحكومات الفعالة فى العصر الحالى لا تتصرف عشوائيًا دون تخطيط ، ولا تتعامل تجزيئيا بغير تكامل ، ولا يكون فيها القرار فرديًّا دون رأى للخبراء والمستشارين وأصحاب الرؤية ؛ إنما تعمل هذه الحكومات من خلال مؤسسات مستقرة ،ومنشآت متكاملة ، ودراسات علمية ، وإحصاءات دقيقة ، وبيانات صادقة ، وأجهزة خبيرة .

وتنفذ هذه الحكومات جانبًا مهمًا من سياساتها الخارجية من خلال نظم المخابرات الوطنية الدارسة ، وهذه النظم لدى القوى العظمى العالمية ، لا تتصرف بفجاجة واضحة بل بدهاء خفى ، ولا تجنح إلى الثرثرة لكن تفعل بهدوء ، ولا تفرض ما تريد بصورة مفضوحة ممجة بل تعمل على دراسة الشعب الذى تريد التأثير فيه ، والقائد الذى ترغب فى العمل من

خلاله ، وثقافة الناس فى المنطقة التى تضعها تحت المنظار ، ثم تستثير الحدث الذى يتفاعل مع المكان والشعب والقائد ، وتقع له تداعيات مرسومة محسوبة ، بحيث يؤدى إلى القرار الذى يريدونه أو التصرف الذى يهدفون إليه ، فيبدو كل من القرار والتصرف كما لو كان أمرًا ذاتيا صدر عن إرادة حرة تملك مصيرها ، ونبع من رغبة وطنية سيدة قرارها .

وفى سبيل دفع الدول العربية ، ومصر بالذات ، إلى حرب رسمية مع إسرائيل بالجيوش وليس إلى عمليات مقاومة فدائية بواسطة المتطوعين ، عمدت بعض القوى الأجنبية إلى التأثير على مركز القرار السياسى وإلى استثارة مشاعر الجماهير الحماسية ، ونفذ التأثير إلى الملك فاروق الذى تم إقناعه بأن الحرب مع إسرائيل مجرد نزهة ينتصر فيها بسرعة فيعزز ذلك مطمعه فى أن يصبح خليفة للمسلمين ، ذلك الأمل الذى كان يراوده بعدما ورثه عن أبيه الملك فؤاد ، فضلاً عن توطيد وضعه فى مصر خاصة مع ازدياد المعارضة له من الوفد الحزب الذى كان يمثل الأغلبية ، ومن التنظيمات الماركسية التى اشتد ساعدها وانتشر نشاطها ؛ وعلى الجانب الآخر ، فقد تم اختراق جماعة الإخوان المسلمين — التى كانت قد قويت واقتحمت حلبة السياسة بسفور منذ عهد حكومة صدقى سنة ١٩٤٦ — فإذا بهذه الجماعة تسيّر المظاهرات الكثيفة ، والتى انضمت لها ببراءة جموع من الوطنيين المخلصين ، تنادى بالحرب المقدسة وبالجهاد ؛ بينما كانت قيادة هذه الجماعة تضمر اتخاذ قضية فلسطين مناسبة لجمع وتخزين الأسلحة والذخائر لتوجيهها نحو انقلاب سياسى داخلى ، وأثمر التخطيط أثره وآتت اللعبة أكلها فأُرسلت فرق من الجيش المصرى (لتأديب العصابات الصهيونية) دون أى إدراك من القيادة السياسية أو معرفة من القيادة

العسكرية لحجم القوات على الجانبين . فمع أن العرب آنذاك كانوا ٤٠ مليونًا ، لديهم جميعا ٣٧ ألف مقاتل ، ٣٠ طائرة ؛ كان الإسرائيليون ½ مليون فرد لديهم ٨١ ألف مقاتل (أكثر خبرة وتدريبا) ، ٧٨ طائرة .

وتحت قبة البرلمان المصرى اعترض إسماعيل صدقى على إرسال قوات منظمة للحرب مع الإسرائيليين ، وقال لرئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى إنه كان يرأس الوزارة قبل منه مباشرة ويعلم أن الجيش المصرى ليس مستعدًا لمثل هذه الحرب وليست لديه ذخائر كافية ، فرد عليه النقراشى بما يفيد أن قرار إرسال القوات المصرية إلى أرض فلسطين قرار نهائى ، وأن الملك تلقى وعدًا بفتح مخازن السلاح البريطانية فى الإسماعيلية لتزويد الجيش بما يريد من أسلحة وذخائر .وذهبت وجهة نظر إسماعيل صدقى أدراج الرياح ، فلم يناقشها أحد بجدية ، أو يدرس الاحتمالات بوضوح ، أو يستقرئ الأحداث استقراءً سليمًا ، حتى الوفد ممثل الأغلبية أصدر بيانًا يؤيد فيه الجيش ويدعو لرجاله بالتوفيق ،ولعله فعل ذلك مخافة أن تتعالى عليه الأصوات تتهمه بالخيانة أو تدعى أنه يطعن الجيش فى ظهره .

قُضى الأمر ووقعت الحرب التى عملت إسرائيل على دفع العرب إليها فتحقق لها بذلك أول أهدافها ، منها إذ أُعلن دافيد بن جوريون رئيس وزرائها أن الحدود التى رسمها قرار التقسيم لإسرائيل قد سقطت وأن حدودها سوف تصل إلى ما تصل إليه بنادقها ، وعمل التحفز للحرب وتحدى الجيوش العربية ومعايشة خطر الإبادة إلى انصهار الإسرائيليين فى بوتقة واحدة ، أدت بهم مع الوقت إلى قدر كبير من التجانس والتماسك ، وعملت هزيمة الجيوش العربية إلى انكسار فى نفوس العرب والمصريين ،

وبيتت لديهم رغبة فى الانتقام للشرف الضائع ، كما أدت إلى وقوع الصراعات وتبادل الاتهامات بين القادة العرب ، وتلا ذلك ابتداء عصر الانقلابات العسكرية فوقع انقلاب عسكرى فى سوريا سنة ١٩٤٩م ، ثم حدثت حركة الجيش فى مصر سنة ١٩٥٢م ، ثم وقع انقلاب عسكرى فى العراق سنة ١٩٥٨م .. وهكذا .

كان أهم ما دفع الشعب المصرى إلى تأييد حركة الجيش رغبته العارمة فى غسل عار هزيمة سنة ١٩٤٨م ، وإحلال الديمقراطية مكان الحكم الأوتوقراطى الفردى للقصر الملكى ، خاصة مع اعتبار هذا الحكم مسئولا عن الهزيمة ، وعما سُمى بصفقات الأسلحة الفاسدة للجيش .

وأدى هذا الوضع إلى أن يلجأ النظام المصرى إلى شراء صفقة أسلحة تشيكية سنة ١٩٥٥م فدخلت مصر بذلك حلبة الاستقطاب الدولى بين المعسكرين الغربى (أمريكا وأوروبا) والشرقى (الاتحاد السوفييتى والكتلة الاشتراكية) ، وكانت هذه الصفقة – التى تم التخطيط لها بعناية – مناسبة لإسرائيل تُقنع بها الغرب أنها قاعدة مهمة لحماية مصالحه ، وخط حيوى لمنع الشيوعية من السيطرة على الشرق الأوسط ، ومانع رئيسى لوقف مد التطرف الوطنى والقومى .

فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦م أمم الرئيس عبد الناصر شركة إدارة قناة السويس ، وكانت أغلب أسهمها للفرنسيين والبريطانيين فثارت ثائرة فرنسا وبريطانيا ورأيا فى هذا التأميم مناسبة لضرب النظام المصرى ولعودة نفوذهما إلى الشرق الأوسط .فبعد الحرب العالمية الثانية ، ووقتما كانت كل من فرنسا وبريطانيا فى مشاغل التعمير وإعادة البناء ، عملت الولايات المتحدة على جزر نفوذهما من الشرق الأوسط لتملأ هى الفراغ الناجم عن ذاك

(كما ذكرتُ فيما بعد) ، وأدرك ساسة إسرائيل حقيقة ما يجرى على الساحة الدولية فسارعوا إلى التحالف مع فرنسا وبريطانيا لغزو مصر وإسقاط النظام الحاكم . كانت إسرائيل تبحث عن حلفاء تستطيع من خلالهم شنّ حرب على مصر والحصول على مكاسب جديدة ، هى أساسًا حق المرور من مضايق تيران إلى خليج العقبة وميناء إيلات ، فمن أجل ذلك كانت حربها للحصول على صحراء النقب ، وهذا المرور هو الذى يمكّنها من مد نشاطها البحرى والتجارى إلى جنوب شرق آسيا ، مع مد هذا النشاط إلى أوروبا وأمريكا عبر موانيها على البحر المتوسط ، وبذلك تصبح قوة عالمية منتشرة إلى أقصى الغرب وأقصى الشرق . وأعطت فرنسا وبريطانيا لجيش إسرائيل مظلة جوية لنقص لديه ذلك الوقت فى سلاح الطيران .

لم يستطع النظام المصرى ، ولا جهاز المخابرات الذى كان قد أنشئ ، معرفة أى شىء عن التحالف الثلاثى بين فرنسا وبريطانيا وإسرائيل أو الوصول إلى أى خبر عن العدوان الثلاثى قبل وقوعه ، وعلى ما روى الرئيس عبد الناصر فقد كان يجلس فى منزله مع السفير الهندى عندما سمع صوت طائرة ، فصعد إلى سطح المنزل حيث تبين أن الطائرة بريطانية ، ومن ثم أدرك أن بريطانيا دخلت الحرب . فهمت الولايات المتحدة قصد بريطانيا وفرنسا من دخول الحرب خاصة أنهما أخفيا عنها أى معلومات بصددها ، ومن ثم فقد طلبت منهما الانسحاب ، وتبعها الاتحاد السوفييتى ، فأرسل إنذارًا إلى الدولتين الأوربيتين بذلك . انتهى العدوان الثلاثى بانسحاب كل من جيوش بريطانيا وفرنسا وإسرائيل ، لكن إسرائيل وحدها التى جنت من العدوان ثمرة ، فلم تنسحب إلا بعد أن حصلت فى اتفاق سرى على حق مرور بواخرها من مضايق تيران وخليج العقبة . وتم الاتفاق على وضع

وحدات من القوات الدولية على الأرض المصرية فى شرم الشيخ وفى قطاع غزة على الحدود مع إسرائيل ، وتضمن الاتفاق عدم جواز سحب هذه القوات إلا بعد موافقة الأمين العام للأمم المتحدة .

كانت هزيمة سنة ١٩٥٦ ، وإن صوّرها البعض نصرًا ، جرعة مُرَّة ثانية للشعب العربى ومنه شعب مصر . فى سنة ١٩٥٨ حدثت وحدة سياسية بين مصر وسوريا فرح بها الشعب العربى على مظنة أن مثل هذه الوحدة تمثل قابضة (كماشة) على إسرائيل من الشمال حيث سوريا ومن الجنوب حيث مصر . واستعاد الشعب ذكرى صلاح الدين الأيوبى الذى هزم الصليبيين جنوب القدس سنة ١١٨٧ ، وأدت هذه الوحدة – مع عوامل أخرى إقليمية ودولية – إلى حدوث صدع فى الأمة العربية فانقسمت إلى ما سُمِّى نظما تقدمية ونظما رجعية ، كما انشطر الشعب العربى بين القومية العربية وما قيل إنه القومية الإسلامية . واشتد الصراع بين النظامين المصرى والسعودى إلى أن وقع فصام للوحدة قيل إنه من تدبير السعودية ، وساء هذا الرئيس عبد الناصر إلى أن حدث فور ذلك انقلاب عسكرى فى اليمن سنة ١٩٦٢ ساعدته مصر ثم انزلق النظام إلى مساندته عسكريًّا ، فأدى ذلك إلى اضطراب النظامية فى صفوف الجيش وإلى تبديد غطاء النقد الذهبى على حرب ضروس وقبائل متفرقة فى جبال اليمن الوعرة .

زادت حرب اليمن من هوة الشقاق بين الدول العربية فى حين كانت إسرائيل تعد نفسها لجولة ثالثة من الحرب تكسب فيها ما بقى لها فى قائمة مطالبها الإقليمية ، واستعدت لذلك بأن شرعت فور انتهاء العدوان الثلاثى إلى إنشاء سلاح طيران قوى ، وإلى تطوير أسلحة منها قنابل متعددة ومتتالية الانفجار لتدمير مدارج الطائرات المصرية ، وإلى

تدريب طياريها تدريبا مستمرًا وشاقًا على الأهداف التى سوف يغيرون عليها فى مصر ؛ هذا بالإضافة إلى دراسة نقاط الضعف فى نظام الرادار المصرى (المأخوذ من السوفييت) وركزوا على عدم قدرة هذا النظام فى رصد الطائرات التى تطير على ارتفاع منخفض فرسموا خططهم ودربوا طياريهم على الطيران المنخفض .

ما إن انتهت إسرائيل من استعدادها للحرب حتى بدأ المخطط الدولى فى التنفيذ . فقد فتحت بعض النظم العربية نيران الإعلام على الرئيس المصرى ، فأذاعت الاتفاق السرى الخاص بمرور السفن الإسرائيلية من مضايق تيران وخليج العقبة واتهمته بأنه لا يحارب إسرائيل وإنما يعاونها على الازدهار والانتشار ، وأن ذلك على الضد مما يظهر به أمام الشعوب العربية . وعلى الرغم من أن بعض الساسة الأجانب كانوا قد حذروا الرئيس المصرى من أن أمريكا قد أطلقت إسرائيل عليه فإن الهجوم الإعلامى كان شديدًا دفعه إلى رد فعل سريع فاتصل تليفونيا بالقائد العام للجيش المشير عامر فى باكستان وسأله عما إذا كان يمكنه إغلاق مضايق تيران وخليج العقبة أمام السفن الإسرائيلية ، فأجابه بأسلوب من الشهامة البلدية تفيد الإيجاب (إذ قال : برقبتى يا ريس) ، ودون دراسات عسكرية مستفيضة ، وبغير أخذ رأى الدبلوماسية المصرية ، ومع الالتفات عن استشارة خبراء القانون الدولى العام ، تم حشد قوات مصرية على عجل فى صحراء سيناء ، وسارت الدبابات والمصفحات فى شوارع القاهرة ، فى طريقها إلى سيناء ، فى تحركات واضحة أقرب إلى المظاهرة السياسية منها إلى العملية العسكرية .

واستكمالا لهذه المظاهرة طلبت الحكومة المصرية سحب قوات الطوارئ التى تقف فى غزة على الحدود مع إسرائيل ، فرفض قائد القوات ذلك

وطلب أن يكون سحب القوات من كل مواقعها ، وضمن ذلك شرم الشيخ ، أو ألاّ تُسحب إطلاقًا . ووقع المسئولون فى الفخ فأرسلوا كتابًا يطلب من القائد سحب كل قوات الطوارئ . وبمجرد أن ذهب الرسول بالكتاب تنبه المسئولون المصريون إلى النتيجة المحتومة لهذا الطلب ألا وهى الحرب مع إسرائيل . فَسَحْب القوات الدولية من شرم الشيخ سوف يضع القيادة المصرية فى موقف صعب : إما أن تسمح بمرور السفن الإسرائيلية فيسيء ذلك إعلاميًا إلى وضعها أكثر وأكثر ، وإما أن تمنع السفن من المرور فتكون الحرب . وحاولت القيادة أن تستعيد الكتاب الذى أرسلته إلى قائد القوات الدولية فلم تستطع ، إذ لم يكن مع الرسول جهاز لتتصل به القيادة ولا كانت هناك محاطّ فى الطريق يمكن عن طريقها مخاطبته ووقفه . وسبق السيف العذل ، ما دام أن تدبر العواقب لم يحدث قبل إرسال الكتاب أصلا . وعلم الرئيس المصرى أن إسرائيل سوف تهاجم يوم ٥ يونيو ، وقال إنه أخطر القادة العسكريين بذلك ، لكن يلوح أن هؤلاء لم يأخذوا الأمر مأخذًا جديًّا فلم يعدوا أى خطة ولم يعرضوا على الرئيس أى صورة للدفاع . على العكس فقد طار المشير قائد القوات المسلحة بطائرته فوق سيناء فى الوقت الذى كان الطيران الإسرائيلى يهجم على الأهداف المصرية ، فشلّ ذلك من فاعلية الدفاع الجوى ، وما إن انتهى يوم ٥ يونيو حتى كان الطيران المصرى والمطارات المصرية قد أُصيبت بضربة قاصمة ، وأصبح الجيش المصرى الذى حُشد فى سيناء عاريًا من الغطاء الجوى وصدرت له الأوامر بالانسحاب فانسحب إلى غرب القناة فى ظروف صعبة ، وكان من نتيجة حرب الأيام الستة أن انتصرت إسرائيل فى الجولة الثالثة ، وحصلت على مساحات من الأراضى أضعاف مساحتها ؛

فقد استولت على صحراء سيناء وعلى هضبة الجولان وعلى الضفة الغربية فى فلسطين بما فى ذلك مدينة القدس التى ظل اليهود يحلمون بها طوال فترة الشتات ، وبهذا وقعت الواقعة التى أثرت وسوف تظل تؤثر على كل منطقة الشرق الأوسط وعلى جميع العرب والبلاد العربية آمادا طويلة .

صدر بعد ذلك من مجلس الأمن الدولى القرر رقم ٢٤٢ لحل النزاع بين العرب وإسرائيل على أساس صيغة « الأرض مقابل السلام » ، ووافقت مصر والبلاد العربية على القرار ، لكنه لم يوضع موضع التنفيذ ، فوقعت حرب الاستنزاف - التى اختلفت بشأنها الآراء - ثم حرب سنة ١٩٧٣ التى أديرت بأسلوب سياسى وعسكرى أدى إلى إحراز انتصار مصرى أفزع إسرائيل والإسرائيليين . وتلت ذلك مفاوضات بين مصر وإسرائيل انتهت إلى اتفاقية السلام سنة ١٩٧٩ ، ثم مفاوضات بين الفلسطينيين وإسرائيل (أوسلو ١ ، أوسلو ٢) أدت إلى اتفاقية سلام أخرى ، ومفاوضات بين الأردن وإسرائيل أدت إلى اتفاقية سلام ثالثة . ومفاوضات بين سوريا وإسرائيل لم تسفر عن نتائج بعد . وكان من شأنه اتفاقيات السلام ، وما واكبها ، وما نتج عنها ، أن انقسم الرأى العام العربى ، وخاصة فى مصر ، بين فريقين ، ليس المهم فيها الكمّ إنما المهم ما يمثله كل فريق من نَظَر . فعلى جانب يرى أحد الفريقين أن الحروب لم تحسم الصراع العربى الإسرائيلى ، وأن إسرائيل واقع دولى يدعمها المجتمع الدولى ، ولابد من إقرار السلام معها حتى تهدأ المنطقة فيمكن أن تحدث فيها استثمارات حيوية ترفع من مستوى الشعوب ، وخاصة فى مصر وفلسطين والأردن وسوريا ، وتذهب بأسباب العناء وعدم الاستقرار . وعلى الجانب الآخر يرى ثانى الفريقين أن الحرب مع إسرائيل ضرورة وجود ولزوم حياة ، وأنه

واجب دينى والتزام وطنى ، وأن التعايش مع إسرائيل أو التطبيع مع الإسرائيليين مستحيل على الإطلاق وليس إلا خيانة للوطن وكفر بالدين .

وإذا ما أريد تقدير هذين الرأيين لوحظ أنهما يمثلان أقصى الجوانب ، وأنهما حادين مطلقين ، يخيّران بين السلام الذى لا يحل المشكلة حلا جذريا ، وبين الحرب التى لا يمكن أن تؤدى إلى نصر حاسم فى الأجل أو الآجال القريبة ،ولربما كان الصواب أن تقيّم المسألة العربية الإسرائيلية تقييما جديدًا .فبغير التقييم الصحيح يتعذر – بل ويستحيل – الوصول إلى حل سليم ونتيجة واقعية . فمنذ قامت إسرائيل ، بل وقبل قيامها بفترة ، وُجِدَ وسوف يظل الصراع بين العرب وإسرائيل ؛ لكن هذا الصراع صراع حضارى فى أساسه ، حضارى فى جوهره ، حضارى فى وسائله . وحتى إذا كانت ثم ضرورة لنزاع مسلح فلابد أن يكون ذلك ضمن إطار الصراع الحضارى ، وفى نطاقه وبوسائله ، وإلا كان محكومًا بالفشل منتهيًا إلى الخسران . والسؤال هو : كيف كان ، وكيف يُحلّ الصراع الحضارى ؟

٢
التحدى الحضارى

واجهت مصر التحدى الحضارى الأول فى تاريخها الحديث عند وقوع الحملة الفرنسية (١٧٩٨ – ١٨٠١) ، لكنها استجابت له . ومن التحدى والاستجابة – كما يقول المؤرخ البريطانى أرنولد توينبى – بدأ اتجاه حضارى فى مصر ، شع منها إلى كل البلاد العربية ، وكثير من البلاد الإسلامية . ثم واجهت مصر التحدى الحضارى الثانى ، منذ بدأت الصهيونية تعمل على إنشاء دولة إسرائيل فى أرض فلسطين ، البعد الاستراتيجى الشرقى لمصر ، لكنها – هى والعرب جميعًا – لم يستطيعوا الاستجابة لهذا التحدى بعد ، ولم تزل الطرق أمامهم – لمواجهة التحدى – غير واضحة ، كما أن الاختيارات السليمة قلقة وغير محددة .

فعندما غزا الجيش الفرنسى – بقيادة نابليون بونابرت – مصر ، على نحو ما كان العرف الدولى جاريًا حتى منتصف القرن العشرين . وعلى الرغم من أن الحملة كانت ذات أهداف سياسية واضحة ، فإنه أحضر معه مطبعة ولفيفًا من العلماء الشبان الذين درسوا مصر جيدًا وكتبوا مجلدهم المهم « وصف مصر » ، ثم اكتشف أحد ضباطه حجر رشيد الذى استطاع الفرنسى شامبليون (جان فرانسوا ١٧٩٠ – ١٨٢٢) حل رموزه وبيان أبجدية اللغة الهيروغلوفية (المصرية القديمة) فانفتحت أسرار الحضارة المصرية العظيمة وانكشفت أستار الأخلاقيات المصرية الرصينة ، مما وضع مصر فى مكانة بارزة على خارطة التاريخ الإنسانى .

وقد كان من شأن الاهتمام بالعلم والدراسة ، وإنشاء المجمع العلمى (٢٠ أغسطس ١٧٩٨) بشعبه الأربع للرياضيات ، والفيزياء ، والاقتصاد السياسى ، والآداب ، والفنون الجميلة ؛ أن أدى إلى استثارة علماء مصر وأبناء مصر لاستيعاب جوانب من العلوم والفنون والآداب لم يكونوا قد عرفوا عنها شيئًا من قبل . ثم عمل الاستيعاب عمله فى النفوس المتوثبة والعقول المتطلعة فبدأت مصر الحديثة نهضتها . وعندما وُلى محمد على الكبير حكم مصر (١٨٠٥) نزع إلى إنشاء دولة مدنية حضارية ، إمّا نتيجة رغبة شخصية عنده ، وإما استجابة لرأى مستشاريه الفرنسيين ، وإما تطلعا إلى فصم دولته ذات النزعة المدنية عن حكم الدولة العثمانية التى كانت تستند فى احتلالها للبلاد الإسلامية على كونها مقر الخلافة الإسلامية وعلى استغلال خاطئ للدين . وفى سبيل إقامة جيش حديث أنشأ مدارس تعلم أبناءها العلوم الحديثة التى تمكنهم فيما بعد من استيعاب العلوم العسكرية وأداء المهام الحربية فى أسلوب عصرى سليم ، الأمر الذى مكنه بعد فترة وجيزة من الانتصار فى حروب عدة ، فى شبه الجزيرة العربية (١٨١١–١٨١٨) والسودان (١٨٢٠–١٨٢٣) واليونان (١٨٢٢–١٨٢٨) وسوريا (١٨٣٢) ، وفى قونية (١٨٣٢) وكوتاهية ، ثم هزيمة الجيوش العثمانية فى نزيب (١٩٣٩) . ومن جانب آخر ، فقد أدت النهضة العلمية إلى تنظيم الإدارة الحكومية وتحسين أساليب الزراعة وإدخال بعض الصناعات ، وانطلقت شرارة التحديث فكانت مصر ثالث دولة فى العالم تنشئ السكك الحديدية (١٨٥٢–١٨٥٦) وأول دولة فى العالمين العربى والإسلامى تقوم بتحديث النظام القانونى والنظام القضائى (١٨٨٣) ، وتقوم بإلغاء الرق (١٨٧٧ – ١٨٩٦) وتتوسع فى التعليم

وإصدار الصحف وإنشاء المتاحف وإقامة دور الموسيقى .. وغير ذلك من جوانب النهضة التى تجلت فى كل أنحاء مصر فى ثورة ١٩١٩ وفى دستور ١٩٢٣ ، وطوال العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات ، حتى صارت مصر – رغم الاحتلال البريطانى وأوتوقراطية القصر الملكى – منارة حضارية للعالم العربى والعالم الإسلامى ، بعلومها وآدابها وفنونها ورجالها ونسائها ؛ وكانت مصر بذلك تقدّم مناقضة غريبة ، فعلى الرغم من أنها كانت دولة من دول العالم الفقير (والنامى أو الثالث بلغة العصر الحالى) ماديًّا ، فقد كانت من دول العالم الأول والمتحضر ، ثقافيًّا وعلميًّا وأدبيًّا وفنيًّا .

لم يكن هذا الاتجاه الحضارى كافيًا ، فقد كان يفتقر إلى التكامل والرؤية المستقبلية والتخطيط البعيد ، كما كان يفتقد الحرية السياسية الصحيحة ، والديمقراطية الواعية الرشيدة ، والإصلاح الاجتماعى الفعّال ؛ ومن ثم فقد قامت طلائع المثقفين وكتائب المستنيرين بالدعوة – عبر قنوات متعددة – إلى تغييرات جذرية ، سياسية واجتماعية واقتصادية ، قصد الوثوب بمصر إلى صفوف الدول الكبرى الحديثة ، والوصول بالمصريين إلى آفاق النهضة الكاملة والتقدم المستمر ، مما كان ولابد أن يؤثر على كل العالم العربى ، فيحدث دفعة شديدة إلى حضارة إنسانية متكاملة . وقبل أن تنجح الجهود فى بلوغ مرادها بدأت الصهيونية فى إنشاء دولة لها على أرض فلسطين ، فاضطربت الجهود ثم انحرفت ، ثم ضاع منها الاتجاه الصحيح وغابت القِبلة السليمة .

منذ أن دمر الرومان الهيكل فى القدس (٧٠ م) وطردوا اليهود ، تشتت هؤلاء فى أنحاء متفرقة من الشرق الأوسط وأوروبا وهم يحلمون بالعودة إلى القدس وإنشاء دولة لهم ، غير أنهم كانوا يعتقدون أن ذلك لن يتم إلا عند ظهور المسيح (المخلّص) حيث يأذن الله بالدولة .

وفى أخريات القرن التاسع عشر قامت الصهيونية فى أوروبا ، وهى حركة سياسية أخذت اسمها من جبل صهيون بالقدس ، واستهدفت إنشاء دولة إسرائيلية فى فلسطين ، وبررت ذلك بأن إرادة اليهود يجب أن تعمل على تحقيق إرادة الله بإنشاء هذه الدولة . ومع الوقت صارت الصهيونية هى الأيديولوجيا السياسية لأكثرية اليهود فى العالم ، ومن ثم عمدوا إلى إنشاء دولة إسرائيل . وبدأ تحقيق ذلك منذ صدر وعد بالفور (٢ نوفمبر ١٩١٧) بموافقة بريطانيا على إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، ثم الهجرة اليهودية المكثفة إليها . فى هذا الوقت وماتلاه كانت مصر وسوريا ولبنان وأكثر البلاد العربية منشغلة فى قضايا التحرير الوطنى من الاستعمار الغربى (وعن السلطة العثمانية) ، فلم يتنبه أغلبها إلى ما فى تلك الأحداث من تحدٍ حضارى . فالصهيونية حركة سياسية نشأت وترعرت فى الغرب ، واليهود الذين هاجروا إلى أرض فلسطين كانوا – فى الأكثر – من بلاد أوروبية . ومفاد ذلك أن المدّ الغربى الذى كان قد بدأ يتخلى عن شكله العسكرى فى الشرق الأوسط ، تحت ضغط الحركات الشعبية ونتيجة لأثر المتغيرات الدولية ، شرع فى الدخول والاستقرار فى المنطقة بأسلوب جديد يمثل التحدى الحضارى الثانى . هذا التحدى كان ينبغى أن يواجه بأسلوبه ويعامَل بمنهجه ، فتبدأ المواجهة من المعمل والمدرسة ، وتتقدم بالعلم والعمل ، وتستوى على الاتجاهات المستنيرة والأخلاقيات المستقيمة .

اليابان بدأت نهضتها المعاصرة سنة ١٨٥٤ ، عندما جاءها أسطول أمريكى صغير واضطرت إلى فتح أبوابها للأجانب وللحضارة الغربية (أى أنها بدأت بعد عصر محمد على بحوالى ٥٠ عاما) وقد استطاعت أن تستوعب الحضارة صناعيًّا وعسكريًّا ، وعندما انزلقت إلى الاتجاه العسكرى

وحكمها العسكريون (١٩٣٢) دخلت فى مغامرات حربية انتهت بإلقائها السلاح (أغسطس سنة ١٩٤٥) بعد ضرب هيروشيما ونجازاكى بقنبلتين ذريتين ، وعُين ماك آرثر الجنرال الأمريكى حاكمًا عسكريًّا فضغط على الإمبراطور هيروهيتو لإعلان عدم ألوهيته ، وطلب منه أن يتوجه من قصره الإمبراطورى لمقابلته فى مقر القيادة العسكرية الأمريكية . وصدع الإمبراطور للأمر وذهب فى عربته واليابانيون يسجدون على الأرض للإمبراطور الذى كانوا يعتبرونه إلهًا ويبكون بحرقة وحرارة ، لكن لا الإمبراطور ولا الشعب أخذته النعرة الوطنية أو ملكته الهوسة الدينية ، فرفض وثار على المطلب الأمريكى وبدد طاقاته فى اضطرابات فوضوية ومصادمات دموية . لقد أدرك حقيقة الصراع ، وأنه فى واقعه صراع حضارى ، يبدأ حله من المعمل والمدرسة ، وبالعلم والعمل ، وأن أى تصرف غير ذلك عمل مخُادع مهما أطلق عليه من مسميات ، يضر ولا يفيد ، يؤخر حل القضية ولا يقدم علاجًا ناجزا . وبعد أقل من ثلاثين عاما صارت اليابان قوة عظمى يحسب لها خصومها السابقون ألف حساب . وبعد خمسين عاما (سنة ١٩٩٥) وصل الدخل القومى لليابان إلى ١٦,٢٪ من الدخل القومى لكل دول العالم ، كما صارت تجارتها تبلغ ٨٪ من حجم التجارة العالمية ، وهى تملك فائضا من النقد الأجنبى (العملة الصعبة) يفوق على ١٩٠ مليار دولارا ، مع أن عدد سكانها حوالى المائة مليون أى حوالى ٢,٢٪ من عدد سكان المعمورة ، ولا تملك اليابان أى موارد طبيعية ، وكل ثروتها فى العنصر البشرى المرشّد .

لو أن اليابان تنكبت الطريق الصحيح فى الصراع الحضارى ، واقتصرت على رفع الشعارات الفارغة وإطلاق الهتافات الخاوية ، لكانت

الآن مشكلة لنفسها ولجيرانها ، وأزمة لأبنائها ولسكان العالم ، تعيش على المعونات الأجنبية ، وتسكن على هامش الحياة ، وتُبرم الأمور دون رأى لها أو مشورة . أما العرب ، فإنهم لم ينتبهوا إلى الوجهة الصحيحة فى الصراع بينهم وبين إسرائيل ، فزاغوا عنها وانحرفوا منها . ومع الوقت زادت درجة الزيوغ واتسعت زاوية الانحراف وأصبح الأمر مشكلة ، أى مشكلة !! والمثقفون المصريون الذين زاروا فلسطين فى النصف الأول من الأربعينيات لاحظوا أن المجتمع الفلسطينى كان منشغلاً بالموائد الفاخرة وحفلات السمر ، بينما كان المجتمع اليهودى منتبها إلى إقامة الجامعات والمعاهد ، وإنشاء المدارس ومراكز البحوث ، وجمع الكتب والمؤلفات الأجنبية والعربية ودراستها ، وتكوين فرق الموسيقى السيمفونية ، وما ماثل ذلك من أنشطة . وحتى الآن ، فإن أغلب العرب - والمصريون منهم - يعزفون عن دراسة إسرائيل من كافة المناحى والمناشط ، والاطلاع على التوراة والتلمود لاستجلاء الفكر الذى يحرك الإسرائيليين ، ووضع سياسة متناسقة متكاملة للتعامل معهم فى الحال والاستقبال ؛ ويكتفون فى هذا الصدد بصيغة « نفى الآخر » ، وهى صيغة غير واقعية وغير علمية . وتؤدى لا محالة إلى نزعات إطلاقية متطرفة ، تضر كثيرًا ولا تفيد ولو قليلا .

تنبه العرب إلى مسألة فلسطين عند إنشاء جامعة الدول العربية (٢٢ مارس ١٩٤٥) ، إذ أُضيفت إلى الوثيقة الرئيسية لها ثلاثة ملاحق ، أولها يخص فلسطين . ثم زاد الاهتمام إثر صدور قرار الأمم المتحدة (٢٩ نوفمبر ١٩٤٧) بتقسيم فلسطين إلى دولتين : عربية للفلسطينيين وعبرية للإسرائيليين . واشتعلت نفوس العرب نارًا منذ صدور هذا القرار والتهبت

مراخًا فى كل حين ، وصارت المسألة الفلسطينية محور حياة
سياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفنية ، دون رؤية
سياسة مرسومة وعمل جدى وتحدٍّ حضارى . ولا شك أن
ب ، وتاريخ البشرية ، كان يتغير كثيرا لو أن العرب قبلوا
بم عند صدوره ، ولو أضمروا نقضه عند التمكن من ذلك ؛
إسرائيليون تمامًا ، وطالبوا بضمانات دولية لتنفيذ هذا القرار ،
ا جادين إلى العمل الشامل ، بإتقان شديد ، وأخلاقيات رفيعة ،
نوا قوة عظمى عسكرية وعلمية واقتصادية ، إن لم يُخْش
فعلى الأقل يدخل فى التقدير حسابهم .
: للمسلك العفوى ، ورد الفعل الانفعالى ، فقد أمكن استدراج
هاء إلى حروب ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ التى هُزموا فيها
إسرائيل كثيرًا . وبذلك بدوا أمام المجتمع العالمى على أنهم عدوانيون
، يُحدثون ضجيجًا شديدًا وصخبًا بالغًا ، ويكثرون من التهديد
ثم إذا بهم ينهزمون عند أول ضربة . ولاشك أن الشعب العربى
، بعض ما فعل لغياب الحقائق عنه ، وأن الجيوش العربية حاربت
، أسوأ الأحوال وأُمرت بالانسحاب فى أصعب الظروف ؛ لذلك
، الحقائق أمام الشعوب وتوعيتها به أمر لا معدى عنه لضمان
لاجتماعى وعدم الانفلات الشعبى ، كما أن قرار الحرب هو دائما
ى ، لأن الساسة هم الذين يعرفون دقائق المسائل وخفايا الأمور
من إصدار القرار السديد ، فإن حدث منهم قرار اندفاعى
، أو خاطئ فهى مسئوليتهم هم أساسًا .

، ١٩٧٣ هى الحرب الوحيدة التى حدثت بمبادرة عربية ،
لاستعدادات السياسية والعسكرية فيها مناسبة فى ظروفها ، وإذ

حققت مصر نجاحا ، تحولت الحرب - نتيجة لمعركة استقطاب السلاح بين المعسكرين الغربى والشرقى - إلى حرب بين السلاح الأمريكى والسلاح السوفييتى ، وهى حرب تتجاوز طاقة مصر والعرب جميعًا فى الوقت الحالى . وحتى سلاح النفط الذى استُعمل فيها انقلب بعد مُدة على العرب أنفسهم ، وقد صرح وزير البترول المصرى ، منذ فترة وجيزة ، بأن سلاح النفط قد استخدم بطريقة عشوائية غير مخطَّطة فأضر بالمصالح العربية ، واكتفى الوزير بذلك ولم يضف شرحًا . على أن حروب الخليج الأولى والثانية كانت مناسبة لنزح كَمٍّ كبير من عوائد النفط فى شراء السلاح وتمويل القوات المحاربة .

النزاع العسكرى المسلح لا يجوز أن يحدث إلا ضمن منظومة من العمل الحضارى الشامل المتكامل ، وإلا ارتد خاسرًا ، يؤذى ويضر من قام به ولا يُجدى قضيته نفعًا . والمثل فى ذلك فى المشرق العربى - ما فعله محمد على الكبير (رغم السلبيات الكثيرة التى تؤخذ على حكمه) إذ حارب بعد مبادأةٍ وبمواكبةٍ حضارية مناسبة لعصره ، فانتصر فى كل المعارك ، حتى على جيوش السلطان العثمانى ، ولم تخسر مصر ماخسرته فى حروب فلسطين . وفى العصر الحالى ، وفى الشرق الأقصى ، فإن الصين تؤجل حل كل مشاكلها الدولية حتى عام ٢٠٥٠ ، أى إلى ماهو أبعد من خمسين عاما ، حتى تكون قد استكملت أبنيتها الحضارية ، وصارت دولة عظمى فى كل المناحى ، فلا تجهد أبناءها عبثًا ولا تجهض نهضتها عفوًا .

ولأن مصر والبلاد العربية قد انتهجت الخيار العسكرى وحده فى المسألة الفلسطينية فقد رهنت تقدمها الحضارى للحصول على مكسب عسكرى واضح ، ووقفت تنميتها البشرية للوصول إلى حل حربى حاسم ،

مع أن ذلك غير ميسور فى الظروف الدولية المعاصرة ، ودون تحقيق نهضة حضارية باعثة . أما إسرائيل التى عرفت منذ البداية حقيقة الصراع فى المنطقة ، وأنه صراع حضارى ، فقد عملت فى هذا الاتجاه بجدية حتى استطاعت أن تحقق نصرًا عسكريًا وتنمية حقيقية . ومن واقع الإحصاءات الدولية عن معدلات التنمية فى الإمارات العربية المتحدة ومصر والمملكة السعودية وإسرائيل خلال السنوات ١٩٩٢ ، ١٩٩٣ ، ١٩٩٤ ، ١٩٩٥ على التوالى ، يبين الآتى :

الإمارات العربية : ١,٥٪ ، ٣,٤٪ ، ٥,٦٪ ، ـــــ .

مصر : ٣, ٪ ، -١,٪ ، -٢,٪ ، ٢,٢٪ .

السعودية : ـــــ و -٤,٪ ، ٦, -٪ ، ـــــ .

إسرائيل : ٤٪ ، ٣,٤٪ ، ٦,٥٪ ، ٦,٩٪ .

أما متوسط دخل الفرد السنوى فى هذه البلاد سنة ١٩٩٣ (E.G.C) فهو كالآتى :

الإمارات العربية : ١٩٤٦٩ دولارًا أمريكيًا .

السعودية : ٧٦١٣ دولارًا أمريكيًا .

مصر : ٧٠٤ دولارًا أمريكيًا .

إسرائيل : ١٣٢٧٣ دولارًا أمريكيًا .

(المصدر: U.N. Statistical Year Book, Hand Book of International Trade) .

بلغة الأرقام الواضحة الدقيقة يظهر جليًا أن معدل التنمية فى إسرائيل يفوق معدلات التنمية فى أهم البلاد العربية ، وأن متوسط دخل الفرد فيها من أعلى الدخول . ولأنه لا يوجد لدى إسرائيل موارد نفطية ، فإن زيادة معدل التنمية ودخل الفرد كان نتيجة العمل ، والعمل أساسًا . وفى هذا المعنى قال رئيس الوزراء الإسرائيلى السابق (شيمون بيريز) إن إسرائيل صدّرت سنة ١٩٩٤ بمبلغ ٤,٥ مليار دولار أمريكى منتجات من التقنية العالية (High Tec) . وحتى يكتمل وضُوح الصورة ، ومدى التخلف التنموى لدى العرب ، يتعين بيان معدلات التنمية عند بعض البلاد النامية فى الشرق الأقصى خلال سنة ١٩٩٤ ، فهى فى الصين ٩,٩٪ ، وفى تايوان ٦,٦٪ ، وفى كوريا الجنوبية ٩,٢٪ ، وفى سنغافورة ٨,٢٪ ، وهى كلها تفوق معدلات التنمية فى العالم العربى .

شق ورصف الطرق العريضة ، وإقامة وبناء العمائر الضخمة ، وإنشاء وامتلاء المراكز التجارية (سوبر ماركت) ليس مؤشرا للتنمية أو دليلاً على الاستجابة الحضارية ، خاصة إذا كان ذلك كله يحدث عن طريق خبراء أجانب وبأيدٍ غريبة عن المواطنين . التنمية الصحيحة والاستجابة الحضارية هى التى تكون إنسانية خالصة ، ومن خلال البشر أنفسهم ، لمحو الأمية الأبجدية والثقافية والسياسية ، والوصول إلى مستوى راق من الرشد والفهم والذوق والخلق . لقد انتهت فى العصر الحالى تمامًا قيمة الزيادة العددية أو القوة العضلية ، وأصبح الصراع بين الدول والنزاع بين الأمم يُحسم فى المعامل ، وبالفكر والدراسات والتنظيم . فالحروب الحديثة حروب عقول ، والصراعات المعاصرة صراعات حضارية .

هكذا ، أدى قصر العرب للصراع بينهم وبين إسرائيل على الصيغة العسكرية دون سواها ، واختزالهم أى مواجهة معها فى الأسلوب القتالى

وحده ، إلى قيام حالة واقعية من « اللاحرب واللاسلم » بينهما ، تكرست مع الوقت ثم استطالت وسوف تستمر زمنًا ، مهما عقد الساسة معاهدات للسلام ومهما أقاموا مؤتمرات للتعاون . فالنجاح العسكرى والفلاح الحضارى أكسب بعض الإسرائيليين شعورًا بالتفوق جنح بهم إلى العنصرية التى عانوا منها زمنًا ، ومال بنفرٍ منهم إلى العدوانية التى شكوا منها طويلاً . والفشل العسكرى والبطء الحضارى أوجد عند بعض العرب إحساسًا بالإحباط دفع بنفر منهم إلى الانتحارية المعنوية والمادية ، وهم أحوج ما يكون إلى التخلص من ذلك . وعمل الشعور السلبى على الجانبين إلى زيادة التطرف وبروزه فى أسلوب نفى الآخر ، إما معنويًّا بالتحقير من شأنه وإما ماديًّا بالمحاولات المستمرة لاغتياله . وإذ قامت بين الجانبين حواجز من الشك وحوائل من الريَّب فقد استحال التفاهم الجدى واستقرت حالة « اللاسلم واللاحرب » ؛ ولم يعد من الممكن حل المواجهة بأسلوب عسكرى حاسم أو بتعاون حضارى فعّال . فالوضع الدولى يمكّن إسرائيل من التفوق العسكرى ، لكن العرب لديهم – على الجانب الآخر – كثافة سكانية وجذور أرضية وتاريخ طويل ؛ وهى أمور لا يمكن أن تمكن إسرائيل من الوصول إلى نصر عسكرى مؤبد . والتفوق التنموى لإسرائيل يخيف بعض القوى العربية من أن يؤدى أى تعاون معها أو أى نظام اقتصادى للشرق الوسط توجد إسرائيل فيه ، إلى سيطرتها على اقتصاديات المنطقة بأكملها . وفى هذا الوضع المضطرب تتضاءل فرص الحلول وتتزايد صور التطرف بما قد يؤدى إلى كارثة إنسانية وعالمية .

والحل الأمثل هو فى فهم طبيعة الصراع ، وأنه صراع حضارى فى الأساس والجوهر والوسائل وإذا ما استقر هذا الفهم ، فسوف ينشأ عنه

فهم آخر يتأدى فى أن النزاع العسكرى أو العمل الدموى ، بعيدًا عن منظومة العمل الحضارى الشامل المتكامل ، هو فى التحليل النهائى ، تعويق لهذه المنظومة وتفريط لها وتقويض لدعائمها وتأخير لأى حل نهائى سليم .

إن زرع إسرائيل فى منطقة الشرق الأوسط ، وبين العرب ، كان ومازال ضربًا من التحدى الحضارى . ومن الصحيح أن يستثير هذا التحدى كل التحدى الحضارى المقابل فيصل العرب – وأولهم مصر– إلى مستوى تنموى إنسانى رفيع ، هو السلاح الفعّال فى أى مواجهة . وهو الذى يؤدى إلى حل نهائى وعادل وحاسم للمسألة الفلسطينية ومشاكل الشرق الأوسط تباعًا .

تلك هى المسألة ، فكيف يكون المشروع الحضارى لمصر والعرب ؟ .

٣
المشروع الحضارى العربى

كان من الممكن أن تكون الرؤية أكثر وضوحًا ،والاختيار أسهل وقوعًا ، لتحديد المشروع الحضارى الذى ينبغى على العرب انتهاجه ، استجابة للتحدى مع إسرائيل ، لو لم تكن هناك فى العالم العربى غيوم تحجب الرؤية الواضحة ، واضطراب يمنع الاختيار السليم ويرجع ذلك إلى عوامل متباينة متداخلة ، أهمها الخلط بين الحضارة والثقافة ، وانتشار الأيديولوجيا السياسية ، وغلبة النزعة الفصامية .

فالحضارة المعاصرة بدأت فى الغرب ، بعدما نفذت إليه الحضارة الإسلامية عبر ثلاثة محاور : من إسبانيا ، ومن صقلية ، وخلال الحروب الصليبية . وقد استفاد الغرب من الحضارة الإسلامية كثيرًا ، وأهم ما فى ذلك ترجمات العرب للفلسفة الإغريقية ، والاتجاه العقلانى لابن رشد ، والمنهج الأصولى – فى علم أصول الفقه – الذى نقله روجر بيكون (١٢١٤ – ١٢٩٤) وبه أقام العلم على وسيلة واحدة هى التجربة ، وكان ذلك أساس العلم الحديث .

وقد ظلت الحضارة تضرب فى الماضى لتجمع كل المعارف الإنسانية ، وتنتشر عبر بلاد الغرب والشرق ، وتُعنى بالأسلوب التقنى الذى يمتد إلى كل جوانب الحياة الاجتماعية والفردية ، حتى صارت حضارة عالمية تلف المعمورة بأكملها ؛ وتتجلى فى أساليب الإنتاج ، ونظم الزراعة ، ووسائل

النقل والمواصلات ، وتجميع المعلومات ونشرها ؛ كما تظهر فى الأدوات المنزلية كالتليفزيون والمذياع والفيديو والصحن الهوائى (الدش) ، وأفران الطبخ وماكينات الغسيل والتليفون والفاكس والطباعة وأجهزة الكشف الطبى وأدوات الجراحة والحاسب الآلى (الكمبيوتر) .. وما ماثل ذلك ، من أساليب ووسائل ونظم وأجهزة وماكينات وآلات تتداخل فى حياة كل فرد فى العالم وتتناسج مع كل الأنشطة الإنسانية .

تلك هى الحضارة ، عالمية فى أساسها ، عالمية فى انتشارها ؛ أما الثقافة فهى التراث الشعبى ونظام التعامل وأسلوب الأخلاق ووسائل التفكير لشعب معين أو لأمة بذاتها . فعلى حين أن الحضارة عالمية ، ولابد أن تكون عالمية ، فإن الثقافة محلية ، ولا مفرّ من أن تكون محلية ؛ ومن ثم توجد ثقافة أمريكية ، وثقافة بريطانية ، وثقافة فرنسية ، وثقافة ألمانية ، وثقافة صينية ، وثقافة هندية ، وثقافة عربية .. وهكذا . قد تمتد ثقافة معينة لتتخالط مع غيرها نتيجة الانتشار الحضارى ومن خلال وسائله ، كما حدث بالنسبة لبعض عناصر الثقافة الأمريكية مثل نظم الوجَبَات السريعة Fast Food والملابس المتحررة Casual وما شابه ، لكنها تبقى عناصر ثقافية تنتشر لسبب أو آخر ، وهى تتفاصل عن الحضارة ذاتها (إلا فى حالات استثنائية) .

ونظرا للخلط بين الحضارة والثقافة وعدم وضْع تمييز دقيق وتفرقة محددة بينهما ، فإن البعض ممن لا يميل إلى الولايات المتحدة (أمريكا) أسقط على الحضارة ما اتصل بها من عناصر الثقافة الأمريكية التى ساعدت الأفلام السينمائية والمسلسلات التليفزيونية على نشرها ، وأصبح يدعو إلى رفض الحضارة كلها ، ونقض الجوهر والمظهر فيها ، بصورة

مطلقة لا منطق لها ولا تحليل فيها . فهذا الذى يدعو إلى الرفض والنقض غارق فى ماديات الحضارة حتى أذنيه مأخوذ (spellbound) بكل أدوات الحضارة وهو لا يدرى ، فما من بيت فى مصر أو فى أى بلد عربى يخلو من كل الأدوات والآلات والأجهزة التقنية المشار إليها من قبل ، وأى مسكن فى شبه الجزيرة العربية ، أو فى سوريا ولبنان ، أو فى مصر ، أو فى المغرب مثلا قد يتشابه تشابها تاما فى التصميم والزخرفة (الديكور) والأثاث والأجهزة والآلات والأدوات التى به مع أى مسكن فى أوروبا أو فى الولايات المتحدة . وجهاز واحد مثل التليفزيون غيّر تغييرًا جذريا من العادات الشخصية والعلاقات العائلية والاتصالات الاجتماعية فى كل البلاد التى انتشر فيها ، اعتبارًا من أمريكا ، وفى أوروبا ، ومصر ، والبلاد الخليجية ، والهند ، واليابان ، وغيرها . وقياسا على التليفزيون ، يمكن تتبع تأثير مماثل لباقى الأجهزة الأخرى ، فى أشكال متغيرة وأوضاع متبدلة .

بطبيعة الحال ، للحضارة سلبياتها ، فلكل شيء محامد له ومآخذ عليه ، وقد أفاض عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) فى بيان سلبيات الحضارة الإسلامية ذاتها فى كتابه الشهير « المقدمة » . لكن سلبيات الحضارة مهما كثرت لا تمنع من الأخذ بأسبابها ، مع العمل الواعى الفعال للقضاء على سلبياتها ، أو على الأقل ، للتخفيف منها . فالأخذ بأسباب الحضارة العالمية ضرورة حياة ولزوم وجود ، خاصة وأن ما يواجه العرب حقيقة بإنشاء إسرائيل هو تحدٍ حضاريّ أساسى . أما الذى يدعو ويعمل على تشويه الحضارة ، وهو غارق فى مادياتها ، ويحرّض ويهيج للبعد عنها ، وهو مأخوذ بعناصرها ، فهو شخص ضار ،

أشبه بالطابور الخامس فى معركة الحضارة ، يجنح إلى هزيمة أمته حين يدعوها إلى إلقاء سلاحها فى المعركة ، ويمكّن أعداءها من الانتصار نتيجة العمل على أن يحتكروا وحدهم كل سلاح فعّال فى الصراع الحضارى .

وقد انتشرت فى مصر وفى البلاد العربية ، إثر انتهاء الحرب العالمية الثانية ، اتجاهات أيديولوجية سياسية ، هى على وجه التحديد الأيديولوجية الماركسية ، وأيديولوجية القومية العربية ، وأيديولوجية الإسلام السياسى ، ولظروف متعددة وأسباب متغيرة ، فقد اتفقت هذه الأيديولوجيات الثلاثة على اتخاذ موقف مضاد من الولايات المتحدة ، ثم من الحضارة العالمية التى يقال إنها حضارة غربية . وفى كتابنا أصول الشريعة (المنشور سنة ١٩٧٩) أشرنا إلى أن الاتحاد السوفييتى ، ودول الكتلة الاشتراكية ، قسم مهم من الحضارة المسماة بالغربية ، وتوقعنا أن يتحول هؤلاء جميعا إلى الجناح الغربى للحضارة ، وأن يعود لهم تمسكهم بالدين ، وهو ما حدث بالفعل بعد ذلك .

ولئن عدلت الأيديولوجية الماركسية وأيديولوجية القومية العربية عن النزعة المعادية للحضارة (الغربية !) فإن الأيديولوجية الإسلامية شددت النكير عليها ، مع أنها مسحورة بكل نتاجها المادى ، تستعمل كل آلاتها وأدواتها ، بل وتستخدمها فى نشر دعوتها وتثبيت نفوذها ، وهى مناقضة كبرى ، أن تلعن جماعة حضارة تسرى فى شرايينها وأن تخاصم اتجاهها بأسرها تماما ؛ الأمر الذى ينتهى إلى أن تدين هذه الجماعة نفسها فى الحقيقة وأن تقضى على مصداقيتها بالفعل والواقع ، فتشتد فيها الفصامية ، على نحو ما سوف يلى بيانه .

الذى لا يرى فى الحضارة إلا التحرر الجنسى وزيادة العنف ومعدلات الجريمة ، مصاب بحول فى الرؤية وعور فى البصيرة ، فالحضارة غير ذلك تماما ، إنها تركيز الجهد الإنسانى لتمثل كل العلوم والفنون والآداب ، وتشديد الكفاح البشرى للتغلب على كل العقبات والظروف الصعبة ، والعمل الجاد المنظم البصير لتحرير الإنسان من الجوع والمرض والاضطهاد وكل العوامل السلبية . لا شك أن فى الحضارات انحرافات عن السبل وميول عن الأهداف وأخطاء فى الأداء ، غير أن هذه كلها نفايات وتجاوزات لا يحكم بها على الحضارة لنفيها أو لإدانتها ، بينما يمكن العمل الجماعى الواعى للقضاء على هذه السلبيات أو تخفيفها شيئا فشيئا ، خاصة ونحن أحوج ما نكون إلى صميم الحضارة كسلاح فعال ، ولا غيره سلاح ، فى مواجهة التحدى الحضارى الذى دخل علينا مخادع النوم ونفذ إلى النخاع فى كل أنحاء الجسم العربى .

الفصامية (Schizophrenia) داء نفسى يصيب الأفراد والجماعات على حد سواء . وهو يؤدى إلى اختلال القدرة على فهم حقيقة الأحداث ، والعجز عن الخروج من دائرة التفكير الاجترارى والتعبير اللفظى والأثر الكلامى ؛ مع ميل إلى التكرار الذى هو أقرب إلى الهذيان والتقلب المستمر والفوضى الواضحة وعدم التنظيم . ومع أن كثيرا من المجتمعات مصاب بالفصامية إلا أنها أصبحت أكثر وضوحا فى العالم العربى ، وخاصة منذ ظهرت مشكلة فلسطين ، فاضطرب العقل الجماعى ولم يستطع أن يصل إلى جوهرها ، وأنها صراع حضارى ، ومن ثم عمد إلى اجترار الكلام وتكرار القول ورفع الشعارات ، دون عمل علمى جماعى منظم وحضارى ، ونتيجة لذلك فقد انقسم العرب داخل أنفسهم ، يتكالبون على النواتج المادية للحضارة لكن لا يستعملون مناهجها العلمية للإنتاج وللاستجابة مع

التحدى القائم ، ويتكلمون كثيرا دون أن تتكتل جهودهم بصورة علمية وحضارية منظمة للرد على التحدى الحضارى الذى يهددهم فى حريتهم وكيانهم ووجودهم ، فى الوقت الحاضر ، وإلى آماد طويلة فى المستقبل .

تلك هى أهم العوامل التى تحول بين العرب وبين الرؤية الواضحة للتحدى الحضارى الذى يواجههم منذ بدأت المسألة الفلسطينية ، والتى تحول بينهم وبين الاختيار الحاسم للطريق الصحيح والسلاح الفعّال ، ومتى تحددت هذه العوامل فى أنها الخلط بين الحضارة والثقافة ، وانتشار الأيديولوجيا السياسية ، وغلبة النزعة الفصامية ، كان من الممكن بعد ذلك طرح معالم مشروع حضارى ، كمجرد علامات فى الطريق ، على أن يكون التحديد النهائى لهذا المشروع حق للأمة العربية كلها ، بعد دراسات جادة ، ومناقشات مستفيضة ، وبحوث علمية ، واختيارات واقعية .

ويمكن تصور هذا المشروع الحضارى فى النقاط التالية :

١ – **الاستنارة** : على مدى التاريخ ، لم تتحقق أى نهضة ولم تقم أى حضارة إلا بعد استنارة . والاستنارة – لغة – تعنى طلب النور . وفى المأثورات العربية أن « العلم نور » . مفاد ذلك أن يطلب العرب العلم ولو فى الصين ، فالعلم بلا جنسية ولا دين ، إنه مشاع للإنسانية كلها وميراث البشرية جميعا . الاستنارة تستلزم القضاء على الأمية الأبجدية والأمية الثقافية والأمية السياسية ، فلا يوجد عربى ولا عربية تعيش فى ظلام دامس من الجهل . الاستنارة تقتضى الاطلاع على العلوم والفنون والآداب ، والحياة بالعقل والمنطق والدليل ، وعدم الاعتماد على الثقافة الشفهية التى ليس لها أساس ولا تنبنى على يقين ، أو الركون إلى الاشاعات التى تضاد الدين وتنقض العلم .

عندما تستقر الاستنارة بهذا المفهوم ، وتنتشر وتترسخ فى كيان الأمة جميعا ، رجالاً ونساء ، فإنها تقدم شخصية متوازنة تستوى على العدل ، أى التوسط غير الجانح إلى اليمين أو إلى اليسار ، والحكم الصائب على الأشخاص والأشياء ، والاختيار السليم للبرامج والقرارات .

٢ — **الديموقراطية** : مع أن الديموقراطية كلمة يونانية ، فقد أصبحت تعبيرًا عالميًّا . ويمكن مع الوعى وعدم التخليط ، اعتبارها امتدادا عصريا لمبدأ الشورى فى الإسلام ، لكن الديموقراطية — على اليقين — ليست هى الشورى . الشورى ، قبل الإسلام وبعده ، تعنى أن يشاور ذوو المكانة ، أو أهل الحل والعقد بتعبير الفقه الإسلامى ، أنفسهم عند اتخاذ قرار ، لكنها لا تعنى ما تعنيه الديموقراطية من تحديد ، إذ هى تفيد حق الشعب فى أن يختار حكامه ، ويراقبهم ، ويعزلهم ؛ وحقه فى أن يشرّع لنفسه ، أى أن يضع القوانين بمندوبين ونواب عنه ، هذا فضلا عن إنشاء المجتمع المدنى ، وحرية التعبير والعمل ، والحكم القائم على القانون .

هذه الديموقراطية لا يمكن أن يباشرها شعب ، مباشرة حقة صحيحة ، إلا إذا كان شعبا مستنيرا ، وإلا انحرفت الديموقراطية إلى تزييف وانحدرت إلى فوضى . فاستنارة الشعب هى الدعامة الحقيقية والرقابة الأساسية لأى ديموقراطية . ولا شك أن ثمة انحرافات فى بعض الديموقراطيات وثمة مطاعن على كثير منها ، غير أن الحكم السليم يكون على الأمر الغالب لا على الوقائع الاستثنائية . فالديمقراطية ، مهما كانت المطاعن على بعض التجاوزات ، هى التى أسقطت رئيس جمهورية الولايات المتحدة (ريتشارد نيكسون) لمجرد أنه كذب على الشعب ولم يقل الحقيقة فى واقعة واحدة ؛ وهى التى وضعت رئيسين للجمهورية فى كوريا الجنوبية (وهى بلد نام)

داخل قفص الاتهام يحاكم أحدهما بتهمة فض مظاهرات بالقوة ويحاكم ثانيهما بتهمة الرشوة . أما أن يقول شخص إن الديموقراطية تعنى الشذوذ الجنسى فهو قول عابث غير جاد ورأى فاسد بلا تمييز ، فهذا الشذوذ يوجد فى البلاد التى تحيا بالديموقراطية كما يوجد فى البلاد التى ترزخ فى العبودية والاستبداد ، وهو يوجد فى العصر الحالى كما وجد فى العصور السابقة ، وفى ديوان الشعر العربى وواقعات التاريخ الإسلامى وتراث الأدب وعامود الكتب ، بيان عن ذلك كثير .

الديموقراطية تعنى أساسا سماع الرأى الآخر مهما كان الظاهر فيه من خطأً ، وعدم نفى الآخر حتى مع العداء الشديد لما يقول ؛ فهى جو عام يمنع التعصب ويزيل التشدد ويحول دون الاغتيال المعنوى أو المادى ، وثم قولة مهمة قالها فولتير لروسو فى فرنسا – قبيل الثورة الفرنسية – تعبر عن هذا المعنى أصدق تعبير ، لقد قال له « أنا لا أوافقك على كلمة واحدة مما تكتبه ، لكننى أدافع حتى الموت عن حقك فى أن تعبر عن رأيك » ، إن الاتجاه الذى يريد الديموقراطية لنفسه لا لغيره ، ويُعنى بأن تكون حرية التعبير حق له دون سواه ، اتجاه خطر معاد للديموقراطية ، ينطوى على فاشية ويحتوى على نازية لابد أن تفسد الديموقراطية وتحيلها إلى جحيم من الاستبداد بالرأى والاعتداد المرضى بالنفس .

٣ – **تحرير المرأة** : إذا كانت المرأة نصف المجتمع كميا (عددا) فإنها ترجح ذلك بكثير كيفيا . ذلك أن المرأة هى أسُّ العمل ، وحجر الزاوية ، فى تربية النشء وتكوينهم ؛ أى أنها هى التى تساهم بنصيب أوفى فى تشكيل عقول الرجال وتنمية نفسياتهم وتلوين وجداناتهم وتنظيم قيمهم ؛ ذلك أنه من المقرر علميا أن السنوات الخمس الأولى فى حياة

﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ سورة البقرة ٢ : ١٣٦ . وهو (ثانيا) يرتبط بواقعه التاريخى ، زمانا ومكانا ، فيتحرك مع الأحداث المتتالية ويتفاعل مع الوقائع المستجدة ، فينزل بآيات جديدة تنسخ (أى تلغى) الآيات السابقة .

ولظروف متعددة ، افتقد المسلمون هذا المنهج الحركى وافتقدوا الحس التاريخى ، فأصبحوا يعتقدون أن النص الدينى جاء من خارج الزمان والمكان ، من فضاء سرمدى ، لا يتحرك ولا يريم . ومع أن النظريات الحديثة عن الزمان قدمت مفاهيم جديدة عنه وأثبتت أنه حركة مستمرة وليس سكونا دائما ، فإن الفهم التقليدى لم يزل سائدا لدى العرب ، مسلمين وغير مسلمين ، بما يجعلهم معلقين فى فضاء موهوم ، خارج نطاق الزمان بعيدا عن مجال المكان ، لا يتفاعلون مع الواقع الجارى ولا يستجيبون للزمن المتدفق . ويبدو ذلك واضحا حين يقطعون أنفسهم من الماضى تماما ، فلا يعترفون بتراث الإنسانية ولا تاريخ العقائد ، كما يفصلون أنفسهم من الحاضر فلا يجددون فكرهم ولا يلاحمونه بما حولهم من فكر ؛ وبذلك يجعلون منهم كائنات مستحجرة ، لا يمكن أن تسيل وتتحرك وتكون ذات فاعلية وتأثير إلا إذا تداخلت مع التاريخ ، وتحركت فى آفاق الزمان ومجالات المكان ، حركة واعية محسوبة .

٥ - **العمل** : فى العشرينيات قال برنارد شو الكاتب البريطانى المشهور : إن القيادة سوف تزول من بريطانيا وتنتقل إلى الولايات المتحدة ،

لأن الفرد البريطانى يذهب فى سن الخامسة والعشرين إلى الهند ليكون ثروة ثم يعود إلى بريطانيا فى سن الأربعين ليعيش على ثروته دون عمل ، أما الأمريكيون فإنهم يعملون بجد طوال حيواتهم . هذا الذى قاله برنارد شو كان يعبر عن رؤية صادقة صحت تماما . فالعمل ، والعمل وحده ، هو أساس رقى الأمم وتقدم الشعوب . ولا غرو – والأمر كذلك – أن تفيد الاحصائيات الدولية أن ساعات العمل فى اليابان هى أعلى معدلات ، تليها الولايات المتحدة . وليس المهم حالا (حاليا) كَمّ ساعات العمل وحدها ، بل وكيفيتها ضرورة أساسية . فساعة عمل من شخص مدرب ومرشّد أفضل من عشرات الساعات من عمل غيره .

لابد للعرب جميعا من أن يتجهوا إلى العمل الجماعى الراشد الفعّال . فالإنتاج ، والإنتاج وحده ، هو الذى يرفع معدلات التنمية الاقتصادية . كما يعلى من شأن النفسية الفردية والاجتماعية ؛ ومقتضى ذلك أن يكف بعض العرب عن مجرد العيش على الريع الناتج من موارد طبيعية أو ثروات عقارية أو عوائد إيداعات أو نواتج وساطات (سمسرة) . وحتى إذا كان لشعب أو لفرد موارد ريعية ، فإن عليه أن يعمل ولا يعيش عاطلا باطلا على هذا الريع . فالشباب فى الولايات المتحدة مثلا يعمل دون تأفف وبغير شكوى وبلا تعاير من أى عمل شريف مهما كانت ثروة أسرته أو مكانة والديه .

هذا العمل الواعى الراشد لابد أن يدفع إلى العمل الجماعى فى نظام المجموعات Team بغير أن يقتصر على العمل الفردى ، فيعوّد ذلك على التعاون مع الجماعة والترابط مع الغير ؛ كما أن له – من جانب آخر – مردود مهم جدا هو أنه يدفع الشخص إلى أن يعيش فى حدود دخله ،

فلا يتطلع إلى ما لا يقدر عليه هذا الدخل ، ولا يستدين لشراء أشياء تحقق له مظهرية اجتماعية ولا تعطيه امتلاء ذاتيا . فالثقافة التى تعيش على الريع ، لا العمل ، تميل إلى التكديس السلعى والاقتناء لما يلزم وما لا ضرورة له ، أما الثقافة التى تحيا على العمل فإنها تعرف قيمة النقد ، ولا تضع القرش إلا فى موضعه ، فتعرض عن الاستهلاك المظهرى وتنأى عن التكديس السلعى .

٦ - **العمل الفردى داخل إطار المصلحة الجماعية** : فمن البدهى أن يُعنى كل شخص بمصلحته ومصلحة أسرته ، وأن يعمل لتحقيق رغباته ورغباتها ، غير أن الخطر كل الخطر فى أن يعمل كل فرد فى الأمة لتحقيق مصالحه دون الاهتمام بصوالح الجماعة . فلو أن ذلك حدث ، فإنه يقضى على روح المواطنة ومبدأ التعاون ونزعة التكافل ، فيتحول المجتمع إلى غابة بشرية يفترس فيها كل شخص أى شخص آخر ، ويلتهم كل مصلحة غير مصلحته ؛ وهو نظر قاصر ولا إنسانى . فالاهتمام بالصالح الفردى داخل إطار المصلحة الجماعية يكوّن رصيدا ضخما للفرد والجماعة ، فى الحاضر المنظور وفى المستقبل البعيد . وإن من أهم ما يتعين أن يتجه إليه المشروع الحضارى العربى هو العمل العلمى الصحيح للموازنة بين الصالح الفردى والصالح الجماعى ، وأن يربى النشء ويعود الأفراد على فهم ينأى عن النظر القصير وينبنى على النظر البعيد ، الذى يُعنى بالمصلحة الجماعية ويضعها فى تقديره ، ويجعل من عمله الفردى جزءًا متناسجًا بالعمل الجماعى ، كما يعى تمامًا أن مصلحته الشخصية تكون أكثر فائدة وأرسخ قيمة إذا ما تحققت ضمن أطر المصالح الجماعية .

تلك بعض نقاط المشروع الحضارى ، لها نقاط أخرى تتكامل بها

وتتساند عليها ؛ والمهم فى ذلك أن يدرك العرب حقائق الأمور . وأن يبدءوا ولو بخطوة واحدة . فما يواجههم حقيقة من وجود إسرائيل ومع العالم بأسره تحدٍ حضارى لا يحل إلا بالاستجابة له والعمل لمواجهته . وما لم يحدث ذلك فسوف تظل مشاعر الاستعلاء وعقد الدونية تحكم واقع منطقة الشرق الأوسط فتحول دون أى حل سليم ، وتظل حالة « اللاحرب واللاسلم » قائمة إلى أمد طويل تتحلل فيه الأمة العربية ويكسب غيرها قوة فى كل مجال .

٤
المشروع الإسلامى

مما يحول دون إجماع العرب على مشروع حضارى واحد ، وجود اتجاه أيديولوجى يرفض أى مشروع جادّ محدد ، ويرفع لافتات دينية ، ويتهم أى معارض له بالكفر والإلحاد .

يقول فريق من هذا الاتجاه الأيديولوجى إن هذه الأمة (أمة العرب ؟) لن تَصلُح إلا بما صلح به أوائلها ، وهى دعوى عاطفية سلفية مرسَلة . ويقول فريق آخر إن العرب ، بل والمسلمين ، لن يفلحوا إلا إذا حققوا المشروع الإسلامى ، وهى صياغة سياسية مستحدثة لذات الدعوى السلفية العاطفية المرسَلة .

وإذ كانت هذه الدعوى وتلك تعارض أى مشروع حضارى باتجاهات عاطفية انفعالية ، وتناهض أى إجماع عربى بلافتات تنسبها إلى الدين ، فإنه يكون من سياق البحث ضرورة التعرض لها بالفحص والتحليل .

وابتداء ، فإن على البحث أن يستقر على المعنى العلمى للفظ الأيديولوجيا Ideology ، حتى تبدأ المفاهيم وهى مستقيمة على موازين صحيحة .

الأيديولوجيا مصطلح ابتدعه « دستو دى تراسى » للدلالة على الفلسفة التى تطّرح النظر الميتافيزيقى جانبًا ، وتقصر همها على دراسة المعانى (بالفهم العام ، أى الظواهر النفسية) لتبين خصائصها وقوانينها وعلاقتها بالإشارة

المعبِّرة عنها ، محاولة بنوع خاص استكشاف أصلها . وقد انصرف المصطلح بعد ذلك إلى معنى ينطوى على السخرية ، ليدلّ على التحليل الأجوف والمناقشة العقيمة والتفكير الخيالى (القاموس الفلسفى) ، على أن للّفظ معنى آخر ، درج وشاع ، يشير إلى استغلال مشاعر دينية أو عواطف وطنية لخدمة أغراض سياسية أو أهداف حزبية (يقارن The International (WEBESTER New Encyclopedic Dictionary

فالمقصود بالأيديولوجيا إذن – فى هذا السياق – استغلال مشاعر دينية أو عواطف وطنية خدمة لأهداف سياسية وأغراض حزبية فى أسلوب يعمد إلى التحليل الأجوف والمناقشة العقيمة والتفكير الخيالى ، بل وإلى قلب الحقائق ونشر الشائعات وسوْق الاتهامات .

إذا ما استقر فهم المعنى المقصود بلفظ الأيديولوجيا فى هذا السياق ، ووضعه فى خلفية الإدراك وعلى أرضية البحث ، تعين التعرض بالتحليل والتقييم للدعويين ، أو للدعوى ذات الشقين ، التى تقف أمام أى اتفاق على مشروع حضارى يواجه به العرب التحدى الحضارى الذى تصارعهم به إسرائيل منذ ما قبل إنشائها بثلاثة عقود ، أى منذ أوائل العشرينيات ، عندما بدأت الهجرات اليهودية تتكثف من أوروبا إلى أرض فلسطين .

القالة التى تردد أن « هذه الأمة لن تصلح إلا بما صلح به أوائلها » تنطوى على غموض ولا تفيد أى تحديد ، فما المقصود بالأمة ؟ وما المقصود بالأوائل ؟ وما الذى صلح به هؤلاء الأوائل ؟ إن لفظ « الأمة » فى القرآن الكريم يعنى الجماعة ولا يعنى الأمة بالمفهوم السياسى المعاصر (وهو ما يعبَّر عنه بالإنجليزية بلفظ Comunity وليس بلفظ Nation) . وخطاب

القرآن للأمة كان خطابا لجماعة المسلمين فى المدينة أو لجماعة من هذه الجماعة ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ [آل عمران آية ١٠٤] ، فإن كان المقصود من الأمة أمة العرب ، فإن العرب كانوا فى شبه الجزيرة العربية وحدها ، العدنانيون والقحطانيون والأعراب ، ومع انتشار الإسلام بدأ لفظ العرب يأخذ مدلولاً جديدًا لا يقتصر على عنْصر معين أو جنس من الناس بل يفيد معنى ثقافيًّا بحيث يشمل المسلمين وغير المسلمين فى البلاد التى غيرت لسانها إلى اللغة العربية مثل مصر وبلاد الشام (سوريا ولبنان وفلسطين والأردن) والسودان وبلاد المغرب العربى ، فكل سكان هذه البلاد أصبحوا عربًا بالمعنى الثقافى ؛ أى أن ثقافتهم عربية مهما كانت أصولهم ، فرعونية أو قبطية أو آشورية أو فينيقية أو بربرية .. إلى آخر ذلك ، فالثقافة الجديدة صهرتهم جميعًا فى بوتقة واحدة وجعلت منْهم أمة واحدة هى أمة العرب المعاصرة ، والتى لا يدخل فيها غير هؤلاء من المسلمين مثل الفرس (الإيرانيون) والترك والهنود وغيرهم ، متى كان الأمر بهذا الوضوح والتحديد ، فما المقصود بلفظ الأمة إذن ؟ هل يُقصد بها العرب جنسًا أو عنْصرًا ، وهم فى شبه الجزيرة العربية ، أم يُقصد بها العرب ثقافة ، وهم أمة العرب من المحيط إلى الخليج ؟ أم يُقصد بها أمة الإسلام ، وهى تضم جميع المسلمين ، وحدهم دون غيرهم من باقى الشرائع ، فى شتى أنحاء المعمورة ؛ بل وتستبعد غير المسلمين فى البلاد الإسلامية مثل مصر وسوريا والأردن ولبنان والعراق وغيرها ؟

إذا كان الحال كذلك ، من غموض وإبهام ، فى شأن لفظ « الأمة » فهو أكثر غموضا وأشد إبهاما فيما يتعلق بلفظ « أوائلها » ، أى الرعيل

الأول من جماعة أو أمة المسلمين ، فإذا نحّينا جانبًا عهد النبى ﷺ ، باعتبار أنه عهد لا يتكرر ولا يقاس عليه ، لأنه كان يتمحور أساسًا على شخص النبى ﷺ ويتمركز أصلا على وضع النبوة ، فقد وقعت أحداث جسام فور وفاة النبى ﷺ ومن مجموعة أوائل الأمة ، فنشبت حروب الردة وحروب الصدقة ، كما اندلعت الفتنة الكبرى فى أواخر عهد عثمان ، وكانت لها أسباب تبدأ ببداية حكمه ، واستمرت الفتنة طويلاً ، بل ويرى كثيرون أنها لم تزل ممتدة شائعة .

فإذا كان المقصود إذن بما صلح به هؤلاء الأوائل إيمانًا صافيًا وخلقًا رفيعًا ، فهو فى التقدير السديد أمر لازم لصلاح العرب جميعًا فى العصر الحالى ، بل ولا صلاح أبدًا بغير إيمان صحيح وخلق رفيع . أما إذا كان المقصود أن يعود العرب المعاصرون إلى ظروف العرب الأولين ، فهو أمر مستحيل وضرب من الخيال ومسٌّ من الخبال ، لأن التاريخ يجرى دائما نحو المستقبل ، ولأن الأنهار لا تعود إلى منابعها أبدًا ؛ ذلك بأنّ العودة إلى الماضى تقتضى هجرة من الزمان وهجرة من المكان إلى ظروف بدائية وفيافى جاهلية ، بما يعْنى القضاء المبرم على العرب ، ونفيهم — خلال أنفُسهم هم — من الحاضر ومن الواقع ، من أى فاعلية ومن أدنى تأثير ، لآماد طويلة ، وهو أقصى ما يطمح إليه أعداء العرب ، أن يحطم العرب أنفسهم بأنفسهم ، وأن يدمروا قيمهم بقيمهم ، وأن يقوضوا كيانهم بفعل أو بقول عصبة منهم .

قالة « المشروع الإسلامى » صدرت أساسًا عن مستشرقين فى الغرب ، يقصدون بها أن المسلمين لا يمكن أن يأخذوا جوهر الحضارة المعاصرة أو

ينتهجوا أصولها الصحيحة ، لأن لهم ثقافة خاصة تفصلهم عن الإنسانية وتفصمهم من التاريخ وتقطعهم عن العلم وتمنعهم من التقدم . وفى شباك هؤلاء المستشرقين وقع اتجاه الأيديولوجية الإسلامية أو الإسلام السياسى ، فأصبح يردد مقولة « المشروع الإسلامى » ، يعارض بها قولاً بلا فعل ، وشعارًا بغير منهج – النظام الحضارى العالمى ، وهو بالضبط ماقصده بعض المستشرقين ، وما أرادوه للعرب ، يتحقق بأيد عربية ويتأكد بأقلام عربية ، تقلّد دون تحليل وتردد بغير تعليل .

اليابان ، عدد أبنائها حوالى المائة مليون ، وهو يكاد يكون نصف عدد العرب ، وإسهامها فى الإنتاج العالمى وفير – على ماسلف بيانه – بل وقد قُدر معدل التنمية لديها فى الشهور الثلاثة الأولى من ١٩٩٦ بنسبة ١٣٪ وهو معدل مرتفع جدا ؛ ومع ذلك فإن اليابانيين لم يصلوا إلى هذا النجاح الكبير بعد رفع شعار عن « المشروع اليابانى » ، رغم أن لهم ثقافة خاصة وتقاليد عميقة . والصين ، يبلغ عدد سكانها ١,٢ مليار نسمة ، وهى تعمل بجد وعزم نحو التنمية الاقتصادية والاجتماعية الشاملة ، ضمن النظام الحضارى العالمى ، وبمناهجه ووسائله وأدواته ، دون أن ترفع راية عن « المشروع الصينى » ، رغم ماهو معروف وشائع عن حضارة الصين العريقة . والهند ، يبلغ عدد سكانها ٩٠٠,٠٠٠ مليون نسمة (أى حوالى المليار) ، وهى تكافح وتنافح من أجل التنمية الشاملة ، بذات الأسلوب ونفس النهج الحضارى العالمى ، من غير أن تلح على ماتسميه « المشروع الهندى » مع أن موضع الهند فى التاريخ الإنسانى له شأن كبير ، ومازال مؤثرا .

المسلمون ، عددهم حوالى المليار (١٠٠,٠٠٠ مليون فرد) ، أى أقل من عدد الصينيين ، وأزيد قليلاً من عدد الهنود ، وهؤلاء المسلمون موزعون

فى كافة أنحاء العالم ، عدد العرب منهم حوالى ٢٠٠ مليون ، والهنود منهم حوالى ١١٠ مليون ، والأندونيسيون حوالى ١٣٠ مليون ، والباقى من الفرس (الإيرانيين) والباكستانيين والأفغانستانيين والبنجاليين والترك وغيرهم ، فهل المقصود بالمشروع الإسلامى مشروعا خاصا بكل هؤلاء المسلمين مع أن أغلبهم ليسوا عربًا (والعرب ١ : ٥ من المسلمين فقط) وهم يأخذون بالمشروع الحضارى العالمى ، كما هو الحال فى أندونيسيا والملايو وتركيا وغيرها ، أم أن المقصود بهذا المشروع مشروعا خاصا بالمسلمين العرب يستبعد منهم غير المسلمين أو يفرض نظامه عليهم ؟ أم أن المعنىّ بالمشروع كل البلاد التى يوجد فيها مسلمون ولو كانوا أقلية كما هو الحال فى الهند - (١١٠ مليون مسلم من مجموع ٩٠٠,٠٠ مليون نسمة) وفى الروسيا وفرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة ؟

ولماذا يثار أمر المشروع الإسلامى فى منطقة الشرق الأوسط وحدها ، بل ومن بعض عناصر الإسلام السياسى دون غيرهم ، وهى المنطقة التى يجرى فيها الصراع الحضارى بين العرب وإسرائيل ؟ وهل رفع شعار عن هذا المشروع حلقة من ضمن حلقات ذلك الصراع الحضارى ، يستدرج بعض العرب إلى استعمال شعارات غامضة ورفع لافتات باهتة لتعويق مسيرة الحضارة ، وتشتيت جهود الناس وتفتيت وحدة الهدف ، كما تم استدراج العرب إلى حروب ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ فهُزموا فيها جميعًا ، ومن ثم يتكامل الاستدراج حتى لايستطيع العرب إقامة أبنية حضارية شاملة وإرساء منظومة حضارية متكاملة ، فلا تحدث بعد الهزائم العسكرية - التى خفف منها نصْر أكتوبر ١٩٧٣ - انتصارات حضارية باهرة ، تجعل من العرب طرفا مكافئًا وعنصرا فعالاً فى الصراع الحضارى مع إسرائيل ؟

الإسلام صيغة عظمى ، ومفهوم واسع ، ترفد إليه وتصب فيه ، تطبيقات كثيرة وأشكال متغايرة وعناصر متباعدة وثقافات متفاصلة ونشاطات متخالفة وأوقات (أزمنة) متعارضة ، ولا يمكن من ثم اختزال الإسلام فى صورة واحدة أو اقتصاره على وقت (زمن) بعينه أو ابتساره فى ثقافة دون غيرها . ففى الإسلام مجاميع مختلفة للأحاديث النبوية ، ومدارس متعددة للفقه الإسلامى ، وثقافات متنوعة للشعوب التى تدين به ، ومذاهب كثيرة فى الاعتقاد والفكر ، وأزمنة (أوقات) متغيرة تعاورت الشعوب الإسلامية من أعلى درجات الحضارة حتى أدنى مستويات التخلف ، فإذا كان هذا هو شأن الإسلام ، محيط زاخر بالكثير ، ورسم بيانى تاريخى جغرافى له مصاعده وله مهابطه ، فلماذا يُقصر على صيغة سياسية قامت فى الشرق الأوسط فترة ولو استطالت ، أو يُضغم فى تعبير إنشائى غامض لا يشرح ولا يفيد .

الذين نحتوا تعبير « المشروع الإسلامى » من المستشرقين كانوا يقصدون أن بالعقل الإسلامى تداخلاً واضطرابًا بحيث يختلط فيه الدين بالسياسة ، والشريعة بالفقه ، والموروث العقائدى بالتراث الشعبى (الفولكلور) ، والواقع بالغيب ، والماضى بالحاضر ، والمعقول باللامعقول ، والأمانى بالحقائق ، والأحياء بالأموات . هذا العقل – فى تقديرهم – لا يمكن أن يحدد الأمور أو ينظم المسائل أو يفاضل بين الموضوعات أو يمايز بين المجالات ، بينما أن التحديد والتنظيم والمفاضلة والممايزة هى الأساس فى دراسة العلوم الحديثة واستيعاب التقنية العالية ، ومن ثم فإن هؤلاء المستشرقين رأوا أن يستقل المسلمون ، فى الشرق الأوسط خاصة ، والعرب منهم بصفة أخص ، بما قالوا إنه « المشروع الإسلامى » الذى يستقطب الإسلام

كله فى تنظيم سياسى أو تشكيل حزبى ، يستبعد النظام الأخلاقى والمنهج العلمى والاتجاه العقلى والأسلوب الفحصى (النقدى) والمبدأ الديموقراطى .

وقد تلقف البعض تعبير « المشروع الإسلامى » ، وسقطوا فى شباك الاستشراق ، فصاروا يرفعونه بمعنى سياسى وحزبى ، يهدف إلى وضع العرب أساسًا موضع الضدّية مع الحضارة العالمية ، وقصر النشاط الإسلامى كله وحدّ الحياة العامة والخاصة للعرب جميعًا ، فى العمل السياسى والنهج الحزبى دون غيرهما .

أكثر الذين يرفعون شعار « المشروع الإسلامى » ممن يُظهرون استرابة بالغرب ويبدون تشككًا فى الاستشراق ، خاصة حين يُوجه إليهم أى نقد أو يطلب منهم أى تقويم ، ثم إذا بهم يهللون ويزيّطون حين تقال جملة ، ولو كانت غامضة أو تُذكر عبارة وإن لم تكن صادقة ، يرون فيها تأييدًا لهم أو تعضيدًا لحركتهم ، أو يجدون فيها ما يمكن أن يتخذوا منه لافتات وشعارات . ومن جانب آخر ، فإنهم غارقون حتى الذقون فى نتاج الحضارة المادى وفى سلعها الترفيّة وأساليبها الحياتية ، دون أن يتنبهوا لهذه المناقضة الشديدة بين الاستهلاك المسرف لمنتوجات الحضارة العالمية والرفض اللاعقلانى لروح هذه الحضارة وأسلوبها فى العمل ونظامها فى الإنتاج ، وبغير أن يلتفتوا إلى نقد العبارات التى تقال لتكرّس لهم وتعضد فيهم هذه الازدواجية فى التعامل مع الحضارة العالمية ، بصورة تجعلهم أكثر الشعوب استهلاكًا لها وأقل الشعوب إنتاجًا فيها ، الأمر الذى ينحيهم جانبًا فى أى صراع حضارى بينهم وبين إسرائيل ، ويحسم الصراع نهائيا إلى غير جانب العرب .

فى تبرير الخلط والتخليط ، والتشويش والتهويش ، بين المسائل والأمور

والمناهج والمبادئ والاتجاهات والنظم ، يقال إن الإسلام ليس شريعة لكنه أسلوب حياة ، وهى قولة حق يراد بها باطل . الإسلام أسلوب حياة ... ولكن بأى معنى ؟ هل بالمعنى الذى يخلّط فيمنع الأسلوب العلمى ويقمع الاتجاه العقلى ؟ أم بالمعنى الذى يميز ويوضح ويحقق ويدقق بحيث تتحول الحياة كلها إلى جوانب واضحة وعقلانية سليمة ووجدانية رفيعة وروحانية صافية ؟

فى مصر القديمة ، وعلى الرغم من السموق والرقى فى العلوم والفنون والفكر الاعتقادى والنظام الأخلاقى ، لم يعرف المصريون طوال تاريخهم (منذ ما قبل العصور التاريخية حتى القرن الرابع الميلادى حين تحولوا إلى المسيحية) أى لفظ يعبر عن الدين ، فليس لفظ « الدين » من مفردات لغتهم ولهجاتهم جميعًا ، وإنما كانوا يقولون إن مانسميه الآن دينا هو « نظام حياة » عندهم ، واليهود يقولون إنهم لا ينتهجون شريعة وإنما يتبعون نظام حياة . والمسيحيون يرددون دائمًا أن المسيحية أسلوب حياة وليست مجرد معتقد ، والبوذيون يتبعون ما يسمى « النظام » ، وهو أسلوب حياة أكثر من كونه معتقدا ، والهندوس يسلكون فى النظام الذى يسمى (دارما) ويقولون إن الهندوسية ليست دينا لكنها نظام حياة فأتباع كل شريعة ، على مدار التاريخ ، وفى مناحى المعمورة ، يرون أنهم ينتهجون أسلوبًا للحياة أو يتبعون نظامًا للعيش ، بينما يرى غيرهم أنهم يدينون بدين أو يعتقدون فى شريعة أو يؤمنون بمعتقد ، ولفظ « الشريعة » نفسه يعنى فى مفردات القرآن الكريم ومعاجم اللغة : الطريق أو السبيل أو المنهج ، بما يفيد أن الشريعة هى الطريق إلى الله أو هى سبيل الحياة ، ونظام العيش الذى يترابط بالله ويتواشج بالجلالة . ومنهج الإسلام الإيمان بالله والاستقامة

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة﴾ [سورة فصلت ٤١ : ٣٠] وعن النبى ﷺ أنه قال لأعرابى سأله عن خلاصة الإسلام « قل آمنت بالله ثم استقم » ومن بدائه الأمور أن الإيمان بالله والاستقامة لابد أن يظهر ويتجلى فى كل تصرفات الإنسان ، فيمتد إلى كل أنشطة الحياة سواء منها السياسة أو المعاملات أو العلاقات أو غيرها ، على ألا يكون ذلك فى تخليط بين الطريق (الشرع) وتطبيقاته ، بين القاعدة التى نزلت من الله والتصرف الذى صدر عن الإنسان .

الذى يميز المتحضرين عن الهمجيين ، ويفرق المتمدينين من البرابرة ، أن المتحضر والمتمدين يستطيع أن يمايز بين الأشياء ويفارق بين الأوضاع ويفاصل بين الأمور ، فلا تتداخل لديه الأوراق ولا تضطرب عنده الأحكام ؛ ولا يخلط بين الدين والسياسة ، بين الشريعة والفقه ، وبين الموروث العقائدى والتراث الشعبى (الفولكلور) ، بين الواقع والغيب ، بين الماضى والحاضر ، بين المعقول واللامعقول ، بين الأمانى والحقائق ، بين الأحياء والأموات . صاحب العقلية المشوشة والنفسية المهوشة الذى يخلط كل شىء بكل شىء ولا يميز أمرًا عن آخر ، ولا يحدد وضعًا عن غيره ، لا يمكن أن يكون قادرًا على استيعاب الحضارة ، قوانين ونظم وقواعد وأحكام وتطبيقات ، ويستحيل عليه من ثم أن يكون منتجًا فيها فعّالاً بها ، وإنما يقتصر وضعه على الكلام غير المفيد والاستهلاك بلا سبب والأوهام التى يضيع فيها العمر هباء .

« المشروع الإسلامى » إذن توصيف استشراقى لحالة عقلية معينة وأسلوب فى الحياة يعمد إلى اختزال الإسلام فى صيغة سياسية وإلى ابتسار

الشريعة فى صورة حزبية ، ويجعل من السياسة دينًا ومن الحزبية شرعًا ، مع أن العمل السياسى عمل بشرى غير معصوم ولا مقدس ، سواء صدر من السلطة أو خرج من المعارضة . ونتيجة لهذا التوصيف فقد صار « المشروع الإسلامى » تعبيرًا حركيًّا ومفهومًا رمزيًّا وتلخيصًا شفريا للإسلام السياسى ، تلقفه أعضاؤه والتفوا حوله واحتموا به ، كوسيلة لتجنيب أنفسهم عن العالم ولوضع جماعتهم فوق الواقع ، بذلك صار هذا المشروع عرقلة للجهود العربية فى الصراع الحضارى مع إسرائيل ، مادام أن نتيجة التأكيد على العمل السياسى وحده والولاء التنظيمى دون سواه أن يستبعد النظام الأخلاقى والمنهج العلمى ، والاتجاه العقلى والأسلوب الفحصى (النقدى) والمبدأ الديموقراطى .

يؤيد ذلك أن من يرفعون لافتة « المشروع الإسلامى » لا يؤكدون على النظام الأخلاقى أبدًا ، ولا يأخذون بالمنهج العلمى ، ولا يوافقون على المبدأ الديمقراطى ؛ فهم يدمنون استهلاك الحضارة بشراهة ويعزفون عن أى إنتاج علمى أو أدبى أو فنى أو عملى أو حضارى ، وينزلون بالإسلام إلى نظام « حاكمية الله » ، ويقصرون الديموقراطية على شكل شائه من التعددية الفقهية التى حدثت فى الماضى ، ولا يسمحون بها أو يوافقون عليها فى الحاضر .

وحاكمية الله تعبير مغالط ، لأن حقيقة الحال أن الناس هم الذين يحكمون وهم الذين يشرّعون ، خاصة وأن التشريع الوارد فى القرآن الكريم قليل ، يتعلق بالكليات أو يتصل فى جزئياته بقواعد الزواج والطلاق والمواريث والوصية ؛ وقد أضيفت إلى هذه القواعد قواعد أخرى كثيرة وضعها البشر ، هى الفقه ، أو وضعها المشرع ، هى القوانين الحديثة .

الديموقراطية تعنى أن يحكم الشعب نفسه بنفسه ، فيختار الحكام ويراقبهم ويعزلهم فى نطاق القوانين الموضوعة ، ويشرف على الموازنة المالية والضرائب ، وأن يعلو حكم القانون لا إرادة الحكام ، وتنتشر المؤسسات المدنية والجمعيات غير الحكومية ويكون المجتمع مجتمعًا مدنيًا فى كل أنشطته ، تسود فيه القيم الدينية لكنها لا تُستغل لإضفاء عصمة على أى فرد أو أى نشاط . أما ماحدث خلال التاريخ الإسلامى من ظهور عدة مذاهب أو فرق شتى فليس هذا هو المقصود بالتعددية فى الديموقراطية ، لأن المذاهب والفرق التى ظهرت على مدى التاريخ الإسلامى ، قبل العصر الحديث ، كانت تمثل تعددية فقهية تقتصر على اختلاف الآراء فى نطاق القانون الخاص ولا تتصل بالنظام السياسى ، وما كان له رأى سياسى منها لم تسمح به السلطة أبدا ، وإما عُدّ صاحبه كافرًا خارجًا على الإجماع ، أو اعتبر زنديقًا يطعن على العقيدة ، أو ظل يعمل فى الخفاء بعيدًا عن أيدى السلطة يبحث عن وسيلة للانقلاب عليها مادامت لم توجد وسيلة شرعية لتداول السلطة ، وهذا ماحدث مع الهاشميين فى العصر الأموى ، وحدث مع العلويين فى العهد العباسى ، وحدث مع الشيعة خلال حكم السُّنّة ، وحدث من السُّنّة إن كان الحكم شيعيًا .. وهكذا .

خلاصة القول إنه لا ينبغى أبدًا أن يُستعمل لفظ « الإسلام » ليصبغ بالدين ما ليس من الإسلام ، أو يلون بالشريعة ماهو خارج عن الشريعة ، ثم يبرر هذا وذاك بمغالطات ومهاترات أشبه بالمجادلات البيزنطية التى شتّت انتباه الناس وبدّدت جهودهم حتى فاجأهم الأعداء ، يهجمون عليهم من كل جانب ويدخلون عليهم من كل ثغرة .

المشروع الإسلامى الصحيح هو ذلك المشروع الذى يستوعب النظام الحضارى العالمى من كل جوانبه ، ويرتبط بالتاريخ كله إدراكًا وتفاعلاً ، ويعمل بجدية للقضاء على الإدمان الاستهلاكى ونشر قيم الإنتاج والإبداع . إنه المشروع الذى يوجد عقلية سوية قادرة على التمييز والتحقيق والفحص والتدقيق ، ويؤكد على النظام الأخلاقى ، والمنهج العلمى ، والمبدأ الديمقراطى ، على أن يكون كل ذلك مع الاحتفاظ بالثقافة العربية ، أو بالأحرى ، مع الإبقاء على السليم منها والصحيح فيها .

وبغير ذلك فإن أى لافتة عن مشروع ، أى مشروع ، لن تكون إلا وسيلة لعرقلة الجهود العربية عن حمل الأسلحة الفعّالة فى الصراع الحضارى بينها وبين إسرائيل ، يضر الأمة العربية ، ومنها مصر ، حتى المستقبل غير المنظور ، ويفيد خصومها فى هذا الصراع ، ويصب لصالحهم أبدًا .

٥

الثقافة العربيـة

الحضارة عالمية ، والثقافة محلية .

لأن الحضارة عالمية ، وإن بدأت في الغرب (أوروبا وأمريكا) ، فإن عناصرها عالمية تشترك فيها البشرية جميعًا ، وتسهم بها مجتمعات كثيرة في الشرق والغرب ، في الشمال والجنوب . ولغة الحضارة كذلك لغة عالمية ، فأسلوب التقنية واستعمال الحاسب الالكتروني (الكمبيوتر) وإدارة الإنسان الآلي (الروبوت) وصنع وإصلاح الآلات الالكترونية ، وإنتاج السيارات بأنواعها ، وكل ما يتصل بنتاج الحضارة ، واحد في مضمونه بحيث يمكن للياباني أن يتعامل مع تلك الأشياء جميعًا ، بما تعلمه في اليابان ، حين يكون في الولايات المتحدة ؛ كما يمكن للألماني أن يتعامل معها وهو في الهند أو في الصين .. وهكذا ؛ أصبحت لغة التقنية وشفرة الحضارة واحدة ؛ متى ما عرفها فرد استطاع التعامل بها في أي مكان من المعمورة ؛ وحين ما تستوعبها أمة فقد ملكت أهم وسيلة من وسائل الاتصال الحضاري والإسهام التقني والإنتاج العلمي .

أما الثقافة فهي محلية ، فلكل أمة ثقافتها ، بل أحيانًا ما يكون لكل جماعة من أمة معينة ثقافة خاصة بهم ، تميزهم عن غيرهم . ويعرفها فيهم الجميع . وعلى ماسلف فإنه توجد ثقافة أمريكية ، وثقافة فرنسية ، وثقافة صينية ، وثقافة عربية .. وهكذا .

الثقافة العربية هى ، فى الأصل ، ثقافة العرب (العاربة والمستعربة) التى كانت تقيم فى شبه الجزيرة العربية ، دخل عليها الإسلام فقصد إلى تغيير بعض عناصرها ، ثم اختلطت به هذه الثقافة وانتشرت من خلاله إلى بلاد الشرق الأوسط التى غيّرت لسانها إلى العربية ، مثل مصر وبلاد الشام (سوريا ولبنان وفلسطين والأردن) والسودان وبلاد المغرب العربى (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب) فأصبحت لكل هذه المنطقة ثقافة عامة تقوم على اللغة العربية والآداب العربية أساسًا ، وتستوى على العادات والتقاليد والمفاهيم والمسالك والطباع والأخلاقيات والعوائد التى كانت من خصائص شبه الجزيرة العربية ثم تداخلت مع الإسلام وامتزجت به فلم يستطع الكثير أن يفرق بين ما هو من الإسلام وما هو من المجتمع ، سواء قبل الإسلام أو بعده . وإلى جانب ذلك ، فلكل شعب فى مجال الثقافة العربية عناصر خاصة به تمتزج بها ، فتميز الثقافة هذا الشعب عن غيره من الشعوب العربية . ففى مصر عناصر تاريخية كثيرة ، منذ عهد الفراعنة ، تختلط بثقافة المصريين العربية العامة فتوجد صيغة مصرية خاصة . وفى العراق صيغة خاصة تتضمن عناصر بابلية وأشورية ، وفى الشام صيغة معينة تظهر فيها عناصر فينيقية ؛ وفى بلاد المغرب العربى صيغة واضحة تبين فيها ملامح بربرية (من ثقافات البربر) .

ما يعنى فى هذا المجال هو تركيز الرؤية على الثقافة العربية العامة ، دون الصيغ المتعددة التى تنطوى عليها وتتكون منها . والملاحظ أن كل أمة تفخر بثقافتها باعتبار أن هذه الثقافة تمثل ميراثها البشرى ، وخصائصها الذاتية ، وتحتوى على تراثها الشعبى (الفولكلور) ؛ لكن فى ميزان النقد ولدى معيار التقويم فإنه لا ينبغى التركيز على الإيجابيات والمميزات ، لأن

فى ذلك انتهاج لمسالك تمجيدية أو افتخارية ، قد يحجب الرؤية السليمة ويدير الرءوس بنشوة العصبية .

فى الثقافة العربية عناصر إيجابية ومزايا معروفة ، غير أن ترديدها فى هذا المجال يخرج عن القصد ويبعد عن الهدف الذى يرمى إلى تحديد السلبيات الرئيسية ، والتى تعتبر عوائق تعرقل الجهود العربية فى معركة الصراع الحضارى مع إسرائيل ، والنقد الذاتى الصادق هو أول خطوات الوعى السليم والسير المتزن الثابت فى الطريق إلى النجاح .

● أول سلبيات الثقافة العربية التى ينبغى إعادة تقويمها ، فكرة المسئولية الشخصية عن العمل . ففى التراث الأدبى العربى القديم – فضلاً عن التراث الشعبى (الفولكلور) – أفكار بُدائية خاطئة عن فكرة المسئولية الشخصية ، استقرت لدى العرب الأوائل ، ولم يتنبه الفكر الإسلامى إلى تغييرها ، فانتشرت إلى العرب جميعا ، وهم يسقطون عليها أوصافًا إسلامية ويسبغون عليها أردية شرعية ، حتى ساد الاعتقاد بأنها أفكار إسلامية معنى ومبنى .

فى الشعر الجاهلى كثير من الأمثلة عن ذلك ، نجتزئ منها ما يلى :

يقول الشاعر الجاهلى طرفة :

لتنقبنّ عنـــى المنيـــة إ ... ن الله ليس لحكمه حكم

ويقول الشاعر الجاهلى لبيد :

إن تقـوى ربنـــا خير نفـل ... وبإذن الله ريثى وعجل
أحمـــد الله ، فـلا ندّ لـــه ... بيديـه الخير مـا شـاء فعل
من هـداه سبل الخير اهتدى ... ناعـم البال ومن شاء أضل

ويقول الشاعر الجاهلي عنترة العبسي :

إذا كان أمر الله أمرًا يقدّر فكيف يفر المرء منه ويحذر

ويقول الشاعر الجاهلي عدى بن زيد :

وإن أُظلـم فقد عاقبتموني وإن أَظلم فذلك من نصيبي

هذه جملة من الأبيات الشعرية تصدر عن التراث الشعبي (الفولكلور) السائد وقت قولها ، ثم تنعكس على هذا التراث فتوطده وترسخه ، ويصبح أسلوبًا كاملاً للحياة والتصرف ، حيث يرى الناس أن « الحاكمية لله » ، بذات المعنى الذى تعتنقه ، وتردد جماعات الإسلام السياسي ، كما يعتقدون أن الله يفعل ما يشاء ، فهو يهدى وهو يضل ، وأنه لا مفر من قضاء الله وقدره ، ولا سبيل للحذر منه ، فما يحدث للمرء نصيب ، أو كما يقال في التعبير الدارج « قسمة ونصيب » أى أمرا قُسم له وفرض عليه .

في مثل هذا الموروث الاعتقادى لا يكون هناك سبب لعمل الفرد ، وما جدوى العمل إن كان العمل لا يمنع مكروهًا ولا يجلب محبوبًا ! ؟ ولِمَ يعمد الإنسان لإصلاح ذاته إن كانت الهداية والضلالة من الله ، أراد الإنسان أم لم يرد ؟ إن الإنسان بهذا الاعتقاد لا يعمل شيئًا ، ولا ينتهج نظامًا أخلاقيا ، ولا يرتب أىّ أمر من أمور حياته ، ولا يتحوط من الخطأ ، ولا يتجنب العناصر السلبية التى قد تودى به إلى المهالك .

عارض القرآن هذا الاتجاه الاعتقادى الخاطئ ، فدعا إلى العمل ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا﴾ سورة فصلت ٣٣ : ٤١ ، ﴿ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم﴾ سورة يس ٣٦ : ٣٥ ، وأكد أن الجزاء يكون على العمل خيرًا بخير وشرًا بشر ﴿ وما تجزون إلا ما كنتم

تعملون﴾ سورة الصافات ٣٧ : ٣٩ ، ﴿ ومن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره﴾ سورة الزلزلة ٩٩ : ٧ – ٨ ، فمن روح القرآن ، وصميم أحكامه ، أن عمل الإنسان أساسى ، وأن حكم الله الذى يعلو كل حكم لا يغنى الإنسان عن العمل ولا يمنع الفرد من المساءلة ، وأن مشيئة الله تلى (فى الحكم لا فى التتابع الزمنى) مشيئة الإنسان ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾ ، وأن الله يهدى من عمل جادا كى يصل إلى الهداية ويضل من عمل قصدا حتى يرزخ فى الضلالة ، وأن النظام الأخلاقي ضرورة لامعدى عنها ولا مفر منها ، وهى الأساس فى وضع الإنسان فى الدنيا وفى حسابه وحياته فى الآخرة .

وعلى الرغم من هذا المفهوم القرآن الواضح فإن الثقافة العربية استكنّت فى المفهوم الجاهلى واسترخت فى المعنى البُدائى ، الذى يوطئ إلى الكسل العقلى والترهل النفسى واللامبالاة فى كل شىء ، فصار الفرد العربى – على الأغلب – لا يربط بين أفعاله ونتائجها ، ولا يرسم أو يخطط لأى عمل من أعماله ، ولا يستوعب فكرة المستقبلية .

فهو يعمل بعفوية وعشوائية دون أن يدخل فى تقديره النتائج المتوقعة والمحتملة لعمله ، وعلى سبيل المثال ، فقد يقود سيارة دون كوابح (فرامل) سليمة ، وبغير صيانة دقيقة ، فإن نبهه أحد إلى ذلك ألقى المسئولية على جانب الله فيقول « ربنا يسترها » ، أو ما فى هذا المعنى . وهو يعلن الحرب أو يقتحم المعارك دون إعداد كاف وبغير دراسة وافية وبلا أسلحة مناسبة ، فإن وجّهه شخص إلى هذا ، وضع المسئولية على كاهل القدرة وردد أن النّصر من عند الله ، مع أن نصر الله مشروط بالعمل الصحيح والاستعداد

الكامل ، فإن حدث بعد ذلك أن ارتكب قائد السيارة حادثًا لم تسعفه الكابحة (الفرامل) فى منعه ، لم يعترف بخطئه وإنما ردد ما يفيد أن ذلك أمر الله ، قدر ومكتوب لم يكن منه مفر ؛ وإن أدت الحرب المرتجلة إلى هزيمة ، لم يقر القائد بخطئه ، وإنما قيل إن الهزيمة قدر مكتوب ونصيب مقرر ، لم تكن منه أىّ نجاة ؛ ولو حدث أن ضبط شخص وعلى يديه دماء الجريمة ، قاتلاً أو سارقًا أو تاجر مخدرات فإنه لا يعترف بجريمته ، صراحة وبوضوح ، وإنما يقول إنها – أى الجريمة – دفعة (وَزّة) شيطان ؛ وكأنها لم تصدر عنه هو .

هذا فهم جاهلى ، يجعل من الإنسان كتلة صماء ، ومن القدر ضربًا صارمًا لا يتغير ولا يتبدل ، وهو نفس الفكرة عن القدر الإغريقى كما يبدو فى المآسى (التراجيديا) مثل مسرحية أوديب وأنتيجون ، والأساطير الإغريقية كأسطورة سيزيف وبروميثوس وغيرها ، وهو مفهوم يخالف المفهوم الإسلامى الذى جاء فى القرآن ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ سورة الرعد ١٣ : ٣٩ .

مادام الشخص العربى – على الأكثر – لا يفكر فى عمله ولا يقدر نتائجه فإن مؤدى ذلك ألا يرسم عنه خطة أو يضع له تصورًا ، ولو كمشروع محتمل ، قابل للتغيير والتبديل ، ما جدّت عوامل تقتضى ذلك أو دخلت عناصر توجبه . وبهذه الارتجالية ، يفتقد الشخص أى إدراك عن المستقبلية ؛ فهو يعيش لحظة بلحظة ، والمستقبل غيب بعيد ، يعتبر أى تنظيم له تدخل فى إرادة الله كما يعد أى ترتيب له اعتراض على المشيئة الإلهية ، يقال فى التعبير الدارج إنها « مقاطعة » وأن على الشخص ألا « يقاطع » فيحاول

تدبير أموره إلى مستقبل بعيد أو يحاول تقدير أعماله فى نتائجها غير القريبة ، ويطلب من الشخص الذى يفعل ذلك ألا « يُقاطع » (ما تقاطعشى باللهجة المصرية الدارجة) لأن فى هذه المقاطعة فألاً غير حسن ، وربما كان نذير سوء .

هذا العنصر من عناصر الثقافة العربية أهم عنصر على الإطلاق ، وهو العنصر الذى ينبغى الالتفات إليه وإعادة تقويمه وتصحيحه ، من واقع الثقافة العربية وبتعديل هذه الثقافة ، لأنه — بصورته الحالية — والتى استدامت مع هذه الثقافة منذ العهد الجاهلى — مانع كبير من أى استيعاب حضارى وأى تقدم علمى ، مادام أنّ أساس الحضارة وصميم العلم يقوم على التخطيط والتنظيم الذى يتضمن كافة الاحتمالات ، ويمتد إلى عقود طويلة فى المستقبل ، ويستوى على تحديد المساءلة الشخصية ، ويستقيم على تشجيع المبادرة الفردية ، ويقتضى فصل الإنسان عن الخرافات الخاطئة التى تعتبر الفرد كتلة صماء ، كُتب عليها ما تفعل ، بحيث لا تفعل شيئًا إلا أن يكون نتيجة قدر صارم مكتوب عليها ، أو يكون أثرًا للدفعة (وَزّة) من شيطان شاطر .

إنه ما لم يتوارى هذا الفهم الخرافى من الثقافة العربية فالصراع الحضارى محسوم سلفًا لصالح الغير .

● وثانى سلبيات الثقافة العربية هو ماجبلت عليه من المكافأة بين القول والعمل ، والاستعاضة عن أى عمل جدى بالكلام الإنشائى المتكرر عنه .

وفى كتابنا « حصاد العقل » (المنشور سنة ١٩٧٣) التفتنا إلى هذا العنصر من عناصر الثقافة العربية وقلنا إن الشخصية العربية تكافئ (أى

تساوى) بين القول والفعل وأنها « تقول مالا تفعل ثم تستمر فى القول حتى يخيل إليها أنها تقدر على فعل ما تقول أو أنها فعلته ، وهو ما يوجد لديها تكافؤ بين القول والفعل ، فما تقوله قد وقع فعلاً أو سوف يقع (على نحو ما قالته) ، بصرف النظر عن الحقيقة في ذلك وعن قدراتها الطبيعية وحدود هذه القدرة على أداء العمل » . ثم أضفنا « إن عقلية تكافئ بين القول والفعل هى عقلية ماتزال تحيا في خيالات الطفولة وأحلام اليقظة ، بعيدة من الواقع هائمة فى الخيال ، تجنح إلى تصوراتها الشخصية لتعوض بها قصورًا ونقصًا يذلها ، ولابد لهذه العقلية من أن تقف على أرض الواقع ، وأن تدرك الفارق بينه وبين الخيال ، بين الفعل والقول ، بين الرغبة والتحقيق ، بين الأمانى والعمل ، فتسعى لكى ترفع من مستوى كفايتها الفعلية إلى مستوى خيالها أو أن تقف بخيالها عند الحد اللازم لتحريك قدرتها ، ولاتزيد » .

وهذا الذى كتب منذ ربع قرن تقريبا لم يزل صالحًا للترديد اليوم ، مما يدل على أن الثقافة العربية تتنكب الطريق السليم تمامًا ، ولا تنى عن اللّف حول نفسها والدوران حول أقوالها ، دون أن تحقق إنجازا جادا أو تنتهى إلى أعمال نافذة .

وقد عبر مثقف عربى عن هذا المنحى من الثقافة العربية تعبيرًا بليغًا فقال « إن العرب ظاهرة صوتية » ، فالعرب فى هذا المفهوم ، يتكلمون ويتكلمون ثم يهدأ بالهم ويسكن حالهم ، وقد ظنوا أنهم ماداموا قد تكلموا فقد عملوا ، ومادام الكلام قد تكثّر وتأكد فقد وقع بالفعل ، وكما قالوا تمامًا . وقبل حرب ١٩٦٧ كثر الكلام عن الحرب ، وعن أن جيش إسرائيل جيش عاهرات ، وأن العرب سوف يلقون بإسرائيل فى عُرض

البحر ، ونتيجة للثقافة التى تكافئ بين القول والفعْل ، فقد اعتقد كل العرب – إلا قليلا – أنه ما إن تنشب الحرب حتى تنهزم إسرائيل تمامًا ، وأن الجيوش العربية سوف تشرب الشاى فى تل أبيب عصر يوم ٥ يونيو ، ثم فوجئ الجميع بهزيمة ساحقة أعادت رسم خريطة الشرق الأوسط من النواحى السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والتاريخية ، والجغرافية ، لآماد طويلة ، ذلك لأن العرب انسحروا بالظاهرة الصوتية بينما كان الإسرائيليون لا يتكلمون عن الحرب أبدًا ، وإنما يعملون لها فى هدوء ومثابرة إلى أن استدرجوا العرب ، من خلال أصواتهم الظاهرة وأحلامهم الواهمة ، إلى حرب حققوا هم فيها نصرًا كبيرًا .

وينبنى على أن العرب ظاهرة صوتية أن ثقافتهم تتأثر كثيرا بالألفاظ فهى من ثم ثقافة لفظية ، تنفعل بالألفاظ الفخمة والكلمات الضخمة والعبارات المسجوعة والمقولات الموضوعة ، ويتشتت الانتباه فى الإيقاع اللفظى والتنغيم القولى ، حتى لا يعى السامع ما يقال ولا يفهم صميم معناه ، وعندما يشاهد ملاحظ عددًا ، ممن يقال إنهم متعلمون أو يظن إنهم مثقفون ، يتمايلون فى نشوة ويكبّرون فى حماس ، وهم يستمعون إلى ترتيل ، ثم يسألهم عما فهموه ، فهو فى الغالب لن يجد إجابة ، لأنهم انتشوا للنغم الموسيقى وكبّروا للحن الغنائى دون أىّ استيعاب للمعنى .

إن الثقافة اللفظية والظاهرة الصوتية من الموانع الكبرى والحوائل العظمى التى تعرقل خطى العرب فى تجاوز أى تحد حضارى ، ذلك بأن الصراع الحضارى لا يحسم بالخطب الرنّانة من فوق المنابر ، ولا بالأقاويل المهيجة من الشرفات ، لكنه يحسم فى المعامل وقاعات البحث ومجالس العلم ، حيث الهدوء والتعقل والحديث الهامس ، هذا فضلاً عن أن اللغة الفعالة فى الصراع الحضارى هى لغة المعادلات المحددة ، والدّالات الواضحة ،

والعبارات المدروسة ، والمفاهيم العلمية ، والحوارات العقلانية ، والمقولات اللاإنشائية .

وما لم تتلاشى أوهام المكافأة بين القول والفعل ، واعتبار الكلام بديلاً عن العمل ، والتعلق بالثقافة اللفظية والتشدق بالظاهرة الصوتية ، فإن موقف العرب فى الصراع الحضارى سوف يكون مضادًا لمصالحهم ، يضر كثيرا ولا يفيد إلا خصومهم فى المعركة . ذلك أنه فى الصراع الحضارى كما فى الحروب ، فإن كل طرف لا يكسب بما لديه من إيجابيات وإنما – كذلك – بما عند خصمه من سلبيات .

● وثالث العناصر التى تؤخر الثقافة العربية عن النزال المتكافئ فى الصراع الحضارى بين العرب وإسرائيل ، هو الافتقار إلى القدرة على التسوية أو الوصول إلى الحلول الوسطى فيما يقال عنه بالإنجليزية Compromise . فالثقافة الجاهلية ، التى اخترقت الثقافة العربية وغلبت عليها ، ثقافة متطرفة ، لا تميل إلى الاعتدال ولا تعرف التوازن ولا تقدر على الحل الوسط .

فالشاعر الجاهلى يقول :

ونحن أناس لا توسط عندنا   لنا الصدر دون العالمين أو القبر

وعلى الرغم من أن هذا المعنى يتعارض مع مبدأ الوسطية فى الإسلام ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطًا﴾ سورة البقرة ٢ : ١٤٣ ، فإنه ، لظروف تاريخية متعددة ، هو الذى ساد وغلب وصار المحور واللب فى الثقافة العربية ، فإذا بها – فى غالب الأحوال – تتطرف فى القول والفعل والتصرف ، لا ترتضى غير الصدر أو القبر ، ولا تعرف إلا اليمين أو اليسار ، ولا تشاهد إلا الأسود والأبيض ؛ فى حين أن الظروف الدولية

بل والعناصر المحلية والأوضاع الشخصية ، لم تعد تقبل ذلك ، أو تسمح به . فأمام كل إرادة ، ولو كانت إرادة أقوى رئيس فى العالم ، إرادات أخرى وقوى غير قواه ورغبات قد تعارض رغباته ، مما يفرض عليه أن يجامل فى قوله وأن يعدّل فى تصرفه وأن يطامن من كبريائه . وثم مثل إنجليزى يمكن ترجمته إلى أن « الأسنان لصلابتها تزول ، واللسان للينه يبقى » ، فإلى جانب التكيّف الطبيعى الذى هو ضرورة حتمية وقانون حيوى فى نظام النشوء والارتقاء الطبيعى ، فإن التكيف الاجتماعى ضرورة حتمية ، وقانون حيوى فى نظام التقدم الاجتماعى وفى حل أى صراع حضارى ، وكما اندثرت الديناصورات – رغم ضخامتها وقوتها – لأنها لم تستطع التكيف مع الظروف الطبيعية المستجدة ، فإن أى أمة قد تتحلل اجتماعيا وتندثر معنويا ، مهما كان عددها ، أو كان موضعها أو كان تاريخها ، إذا لم تستطع التكيف مع الظروف الاجتماعية والدولية المستحدثة . وأول حرف فى لغة التكيف هو نبذ التطرف ، ماديًا كان أم معنويًا ، وزرْع التوسط فى القول والفعل والتصرف ، فى الأمة كلها ، وفى كل فرد من أفرادها ، بل وفى ثقافتها عمومًا .

يفرز التطرف دائما ثقافة العنف والإرهاب ، ويعرض عن ثقافة المحبة والسلام . فلدى التطرف يصبح أى خلاف (ولو فى الرأى) خصومة ، والخصومة عداوة ، والعداوة حربًا ، والحرب لا تنتهى إلا بإعدام أحد الجانبين أو إعدامهما معًا . وهكذا ، فى التطرف ، تترعرع وتزدهر ثقافة العنف والإرهاب والحرب والثأر والكراهية والحقد ، لا على المستوى الدولى فحسب ، بل وعلى المستوى الوطنى كذلك . فداخل الوطن ذاته ، وضمن الأمة نفسها ، لا يكون ثمّ تنافس شريف أو تناضل محترم أو تصارع متوازن

أو تبارز كريم ، ولا حتى تعاون مهذب أو تجادل مؤدب أو تناقش مقنّن وإنما تغلب النزعة العدوانية دائمًا ويسود اتجاه لاختزال الغير واستئصال الخصم ، حتى فى المعارك الأدبية أو السجالات الفكرية أو المداولات العادية .

ثقافة العنف والإرهاب ، ثقافة العدوان والإعدام ، هى النتاج الطبيعى للتطرف ، والثمار العادية للتصرف الذى لا يعرف خيارًا بين الصدر والقبر ، ولا يقبل أى توسط أو يرتضى أى تنازل أو يفسح فى كيانه مكانًا للحب ومجالاً للسلام .

الحروب الحديثة لا تقتصر على المعارك الحربية والصراعات العسكرية ، بل إنه يمكن القول إن هذه الحروب تعمل على تجنب ساحات المعارك الحربية ، وتجاوز أوضاع الصراعات العسكرية ، ليكون لها مجال آخر تعمد فيه إلى اختراق الجبهة الداخلية أو اختلاس الأسرار التقنية أو انتزاع المعادلات العلمية ، وهى بهذا المعنى لا تقوم بين أعداء ظاهرى العداء ، بل وبين أصدقاء واضحى المودة . ومن هنا تداولت الأخبار أحداث تجسس تقنى وعلمى من إسرائيل على الولايات المتحدة ، ومن اليابان على الولايات المتحدة أيضًا ، ومن بريطانيا على الروسيا ، ومن الروسيا على ألمانيا ، وهكذا .

وإلى جانب هذا السلاح يوجد سلاح آخر ، هو ما ظهر فى قضايا التجسس على مصر ، وما قلنا عنه فى حكم قضائى مشهور إنه « الجاسوسية الاجتماعية » ، أى تلك الجاسوسية التى تعمل ضمن المجتمع ، يهدف بها أى طرف فى الصراع الحضارى ، أن يضعف هذا المجتمع أو يوهن قواه أو يبدد طاقاته أو يشتت قدراته . ومما يساعد فى هذا العمل أن يدرس الخصم

ما يدعو خصمه إلى الإصرار على أخطائه أو الافتخار بسوءاته أو الالتصاق بسلبياته . وفى هذا المضمار قد يمتدح شخص أو أشخاص ، جاهلين أو مدفوعين ، عناصر ضارة فى الثقافة العربية ، فيقع العرب فى الشرك ، ظانين أن المادح دائمًا صديق وأن القادح بالضرورة عدو ؛ مع أن ذلك ليس صحيحًا على إطلاقه ، وفى التراث العربى ذاته مثل يقول « رحم الله من أهدى لى عيوبى » . ونتيجة لتخفّى الذئب فى ثياب الحمل ، وتناوم الثعلب نوم القط ، فإنه ينبغى على العرب أن يكونوا على يقظة شديدة ووعى فائق وتنبه زائد ، كيما يفلحوا فى الاستجابة للتحدى الحضارى الذى يستفزهم ويهددهم بالفناء المادى والمعنوى طويلاً طويلاً .

٦
التوراة واليهود

للصراع بين العرب وإسرائيل جانب دينى وعنصر اعتقادى ، لا يمكن إغفاله أو التغاضى عنه ، كما لا يجوز تجنبه أو تجاوزه ؛ خاصة وقد صار شديد البروز لدرجة دفعت البعض إلى القول بأن ما بين العرب وإسرائيل هو صراع دينى أكثر منه صراع حضارى ، وأن الصراع الحضارى ليس إلا وجهًا يخفى حقيقة الصراع الدينى .

والتعرض للجانب الدينى والعنصر الاعتقادى فى الصراع بين العرب وإسرائيل ينطوى على محاذير كثيرة ، منها أنه لا يعجب ، بل والغالب أنه لن يرضى ، تيار الأيديولوجية اليهودية (الصهيونية) ولا تيار الأيديولوجية الإسلامية (الإسلام السياسى) ؛ ذلك بأن الأيديولوجية السياسية — أساسًا — تنظر إلى عبارات تبريرية ولا تبحث عن حقائق موضوعية ؛ بمعنى أن هذه الأيديولوجية تستغل مشاعر دينية أو عواطف وطنية لتحقيق أهداف سياسية أو أغراض حزبية ، وهى من ثم لا تخاطب العقل ولا تركن إلى المنطق ولا تتبع الأصول ولا تريد الحقيقة ، لكنها — على العكس من ذلك تمامًا — تستثير العواطف وتهيّج المشاعر ، وتنتهج الأغراض وتنشر الأوهام ، فإذا وُضعت أمامها الحقائق اضطربت وانفعلت ، ولم تقبل هذه الحقائق ، بل انقلبت على من يذكرها ، واشتدّت على من يكتبها . وجدير بالذكر ، تدليلاً على ذلك الأسلوب غير السوىّ ، أن أدولف هتلر زعيم ألمانيا النازية

كان قد أصدر قانونًا يقضى بأن يُعاقب بالسّجن أى مؤرخ يذكر وقائع ضد مصلحة الشعب الألمانى حتى ولو كانت حقيقية أو ثابتة ، وهو ما يفيد أن الزعيم الأيديولوجى منع بالقانون نشر الحقائق التى قد لا تتفق مع أهداف حزبه وأغراض سياسته ، واعتبر أن نشر الحقائق يضاد مصالح الشعب الألمانى مع أنه فى الحقيقة – كان يعارض اتجاهات الحزب النازى ، أى يعرقل حركة الأيديولوجية السياسية التى كانت تهيمن على مقاليد الشعب الألمانى ، وتدفعه بدعاياتها الكاذبة إلى هاوية سحيقة ، كانت الحقائق تنقذه من السقوط فيها ، وتحول دون كوارث لا نهاية لها ؛ وهو أمر ثبت تاريخيًا ، وينبغى أن يكون مثلاً تُقاس عليه التصرفات الأيديولوجية ، ويُحكم به على وضع الانفعال وعلى نهج الاعتدال .

حيث تستقر المفاهيم السالفة ، يتعين البحث عن الفكر الدينى وراء الصراع بين العرب وإسرائيل . فالإسرائيليون يقولون أن أرض فلسطين هى الأرض الموعودة ، وعدهم الله بها فى التوراة ، بل ويرى البعض أن الأرض الموعودة تقع فيما بين نهر النيل ونهر الفرات . وكانت هذه الفكرة فى تقدير الحركة الصهيونية التى قامت لتنشئ دولة لإسرائيل . فعندما عُرضت عليها أماكن أخرى تقيم فيها هذه الدولة ، أبت وصممت على أن تقام الدولة فى فلسطين ، وتكون عاصمتها القدس (أورشليم) ، لما فى ذلك من معنى عاطفى يجمع الإسرائيليين كلهم حول فكرة الشعب المختار والأرض الموعودة .

متى كان الأمر كذلك ، فمن هم الإسرائيليون ؟ ومن الذى أعطاهم الوعد ؟ وما هو كنه هذا الوعد ؟ وما هو نطاقه ؟ وماذا يكون أثره ؟

الإسرائيليون ، أو بنو إسرائيل ، أصلاً ، هم أبناء يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم عليهم السلام ، وهم اثنا عشر ابنًا ليعقوب ، منهم يوسف عليه السلام ، ثم أولادهم الذين كونوا اثنى عشر قبيلة ، تنتسب كل منها إلى واحد من أبناء يعقوب . وقد تغير اسم يعقوب إلى إسرائيل ، أى عبد الله (على الأغلب ، إذ يقال إن المعنى هو « الذى غَلَب إيل » ، وإيل هو إله العبرانيين من كلمة (إل) التى تفيد معنى الألوهية فى اللغات السامية) ، مفاد ذلك أن بنى إسرائيل هم أبناء وأحفاد يعقوب المسمى إسرائيل ، وقد ورد ذكرهم فى القرآن الكريم بلفظ « الأسباط » الذى يعنى لغة : الأحفاد ، ﴿وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ سورة النساء ٤ : ١٦٣ ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ سورة البقرة ٢ : ١٣٦ ، ﴿وقطعناهم اثنى عشرة أسباطًا أممًا﴾ سورة الأعراف ٧ : ١٦٠ .

اتجه بنو إسرائيل إلى مصر مع والدهم يعقوب (إسرائيل) حين كان يوسف عليه السلام قد صار ذا شأن فيها ، وعن ذلك تقول التوراة (.. وحمل بنو إسرائيل يعقوب أباهم وأولادهم ونساءهم .. وجاءوا إلى مصر) تكوين ٤٦ : ٥ — ٧ ، وفى مصر أقاموا فى أرض جاسان (المنطقة حول بلبيس حالا) فقد جاء فى التوراة (ثم قال يوسف لإخوته .. لكى تسكنوا فى أرض جاسان . لأن كل راعى غنم رجس للمصريين) تكوين ٤٦ : ٣٤ .

حدث ذلك — على الراجح — إبان حكم الهكسوس لمصر ، والهكسوس بدو ورعاة من المناطق الكائنة فى شرق مصر ، كانوا يحتلون مصر

(١٧١٠ - ١٥٦٠ ق . م) ونظرًا للروابط البدوية والرعوية بين الهكسوس وبنى إسرائيل يلوح أنه قد قامت بينهم علاقات تعاون ساءت المصريين ، فلما بدأ عصر التحرير ، استطاع المصريون بقيادة أحموس الأول طرد الهكسوس واستعادة الحكم المصرى ، حيث بدأت الدولة الحديثة (١٥٦٠ - ١١٠٠ ق . م) . ورغم تمكن المصريين من طرد الهكسوس فقد ظلوا فترة يخشون تهديدهم ، ويستريبون فى الإسرائيليين مخافة أن يساعدوهم فى إعادة غزو مصر ، ومن ثم فقد عاملوهم بجفاء وحذر ، فرأى الإسرائيليون فى ذلك إذلالا واستعبادًا لهم ، وتُلمح التوراة إلى هذا المعنى فتقول (ثم قام ملك جديد على مصر .. فقال لشعبه هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر .. هلم نحتال لهم (أو نحتاط منهم ؟) لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا .. فاستعبد المصريون بنى إسرائيل بعنف . ومرّروا حياتهم بعبودية قاسية ..) خروج ١ : ٨ - ١٣ .

فى هذا الوقت ظهر موسى عليه السلام ، وتبنته ابنة فرعون ، كما تقول التوراة (.. ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة فرعون فصار لها ابنًا ودعت اسمه موسى وقالت إنى انتشلته من الماء) خروج ٢ : ١٠ . لفظ موسى لفظ مصرى يعنى ولدًا أو ابنًا ، وكان فى العادة جزءًا من اسم ثنائى هو رع موس أو تحوت موس .. إلى آخر ذلك ، بمعنى رع أو تحوت أُعطى ولدا ، أو بمعنى أو ابن رع أو ابن تحوت . وكعادة المصريين فى اختصار الأسماء المزدوجة إلى لفظ واحد (منعم بدلا من عبد المنعم ، حليم بدلا من عبد الحليم .. وهكذا) فقد اختصر اسم موسى إلى موس ، وانتقل اللفظ إلى اللغة العبرية فصار موشى بينما هو فى العربية موسى . وثقافة

موسى عليه السلام ثقافة مصرية بلا شك ، فقد رُبّى ونُشّئ فى بيت فرعون ،وتعلم كل حكمة المصريين (كما يقول التلمود) ، وصار أميرًا للجيوش التى غزت بلاد بونت (الصومال) .

فرّ موسى من مصر حيث تزوج ابنة كاهن مدين ، وأثناء أن كان يرعى الغنم (ظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عُلّيقة ، فنظر وإذا العلّيقة تتوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق .فقال موسى أميل الآن لأنظر .. لماذا لا تحترق العليقة .فلما رأى الرب أنه مال لينظر ناداه الله من وسط العليقة ..) ، خروج ٣ : ٢ - ٤ . من هذا النص التوراتى يبين أن الذى ظهر لموسى أولا هو ملاك الرب . ثم فجأة يصبح هذا الملاك هو الرب وهو الله ذاته ، بغير تفسير لكيفية تحول ملاك الرب إلى الرب نفسه . وهذا النص المُشْكل دعا بعض العلماء إلى القول بأنه قد حدث خلط بين ملاك الرب والرب ذاته ، يؤكد ذلك ما جاء فى نص آخر (فانتقل ملاك الله السائر أمام عسكر إسرائيل وسار وراءهم ، وانتقل عمود السحاب من أمامهم ووقف وراءهم .. وكان فى هزيع الصبح أن الرب أشرف على عسكر المصريين فى عمود النار والسحاب ..) ، خروج ١٤ : ١٩ - ٢٥ . ففى هذا النص ، كسابقه ، تبادل بين ملاك الرب والرب ذاته ؛ وهو خلط يصفّيه القرآن ، كما سوف يلى .

فى التوراة ، أن الرب طلب من موسى أن يذهب إلى فرعون ليطلب منه إخراج بنى إسرائيل من مصر ، لا ليدعوه إلى الإيمان بالله ؛ أى أن رسالة موسى إلى فرعون كانت بقصد الإفراج عن بنى إسرائيل وتحريرهم من العبودية ولم تكن رسالة هداية تدعوه أو تدعوا قومه إلى

الإيمان بالله أو عبادته أو اتباع شريعة أخرى (... فغطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله . فقال الرب إنى رأيت مذلة شعبى الذى فى مصر .. فنزلتُ لأنقذهم من أيدى المصريين وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جيدة وواسعة ، إلى أرض تفيض لبنًا وعسلاً .. فالآن هلم فأرسلك إلى فرعون وتخرج شعبى بنى إسرائيل من مصر) خروج : ٦ — ١٠ (وهذا نص آخر يذكره القرآن بصورة أخرى ، على نحو سوف يلى) غير أن التوراة تؤكد أن هذا الوعد ليس بغير تحفظ ، ودون شروط ، وبلا رجعة ؛ فقد جاء بها (وكما فرح الرب لكم ليُحْسن إليكم ويكثّركم كذلك يفرح الرب لكم ليفنيكم ويهلككم فتُستأصلون من الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها ، ويبددك الرب فى جميع الشعوب من أقصاء الأرض إلى أقصائها) تثنية ٢٨ : ٦٣ .

(هذه هى كلمات العهد الذى أمر الرب موسى أن يقطعه مع بنى إسرائيل ... عهد الرب إلهك وقسمه الذى يقطعه الرب إلهك معك اليوم) تثنية ٢٩ : ١ — ١٢ .

خرج موسى من مصر ببنى إسرائيل ، ومعهم بعض المصريين ، وحدث ما حدث فى صحراء سيناء حتى دخلوا أرض فلسطين بعد موت موسى ، وهناك حكمهم الأحبار (رجال الدين) والقضاة حتى رغبوا فى أن يكون لهم ملكا ، فكان شاول ملكا لهم ، تبعه داوود ثم سليمان (وهما عند اليهود ملكان وليسا نبيين) . وكان عهد سليمان من أزهى عصور الإسرائيليين (حوالى ٩٧٠ — ٩٣١ ق .م) حيث بنى الهيكل المقدس فى مدينة القدس (أورشليم . أور بمعنى القرية ، وشليم بمعنى السلام ، أى مدينة السلام) وانقسم اليهود بعد سليمان إلى أسباط (أمم) الشمال ، فكونوا مملكة إسرائيل ، وأسباط (أمم) الجنوب ، الذين كونوا مملكة أصغر

هى مملكة يهودا ، ودارت الحرب سجالا بين المملكتين (٩٣٥ - ٧٢٥ ق .م) فضعفتا معا ، مما مكن سرجون الملك الآشورى من فتح السامرة ، عاصمة إسرائيل ، والاستيلاء على مملكة يهودا ونفى كثيرًا من اليهود . ثم قام البابليون بعد ذلك بهدم هيكل سليمان (٥٨٦ ق . م) وأسروا اليهود فى بابل ولم يرجعوا إلا سنة ٥١٦ ق .م حيث أعادوا بناء الهيكل ، إلى أن قام الرومان بهدمه وتدمير أورشليم (٧٠م) ، فتشتت اليهود فى جميع الشعوب من أقصاء الأرض إلى أقصائها (كما جاء فى النص التوراتى) .

عندما قام الملك الآشورى سرجون بنفى اليهود من يهودا والسامرا تبددوا خارج المملكتين ، وفى هذا النفى والتبدد فُقدت عشر قبائل (أسباط ، أمم) من قبائل اليهود الاثنى عشر (الأسباط) ، وبقيت قبيلتان . واعتنق اليهودية أفراد وجماعات من غير نسل إسرائيل أو بنى إسرائيل الأصلاء ، وبذلك صارت اليهودية معنى ثقافيًا لمن يعتنقون اليهودية وليست دليلاً على جنس معين أو عنصر بذاته أو شعب صافٍ بلا تخليط ، وإن كان من الضرورى أن تؤدى الثقافة اليهودية إلى خصائص متقاربة ، وإن لم تكن متوحدة ، مع اليهود ثقافة أو اليهود بالشريعة .

فى العصور الوسطى توارت الدولة الوطنية التى كانت قد قامت فى مصر (٣٢٠٠ ق .م) وفى بابل وفارس واليمن ، وحل الفرز الدينى محل الولاء الوطنى ، فساد الإسلام فى منطقة الشرق الأوسط ، وغلبت المسيحية فى أوروبا ، وفى هذا الوضع الكائن عاش اليهود فى مناطق متفرقة فى الشرق الأوسط وأوروبا ، فيما يسمى بالشّتات .

كانت الحضارة الإسلامية ، التى ازدهرت فى القرن الثامن والتاسع والعاشر الميلادية (الثانى والثالث والرابع الهجرية) ، حضارة متسامحة ،

اتسعت لمجوس الفرس وانفسحت لليهود والمسيحيين ، فعاش اليهود فى هذه الحضارة دون اضطهاد ، بل إن بعضهم وصل إلى مراكز عليا ومؤثرة . موسى بن ميمون (١١٣٥ - ١٢٠٤) اليهودى عمل طبيبًا خاصا لصلاح الدين الأيوبى ، وموسى هذا هو الذى تقول عنه الأدبيات اليهودية « من موسى (ابن عمران) إلى موسى (ابن ميمون) لم يظهر إلا موسى (أى هذا الأخير) » . فى أوروبا كان الوضع مختلفًا ،فقد كانت مقسّمة إلى إقطاعيات ، لم يكن فيها مجال لليهود ، ومن ثم فقد اتجهوا إلى التجارة والأعمال المالية كالإقراض والرهن ، وبرعوا فيها وكونوا ثروات طائلة ، أثارت عليهم حقد الحكام وحقد الناس على السواء ، وساعد على ذلك أن للمعاملات المالية قواعد خاصة بها ، تخالف وتنافى ، فى الأغلب الأعم ، كثيرًا من القواعد الاجتماعية التى تواضع الناس عليها وصارت أعرافًا تقليدية .

فى هذا الجو المضطرب سياسيًّا واجتماعيًّا وماليًّا وقع اضطهاد على اليهود فى أماكن مختلفة ، ولأسباب متعددة ، ربما ساعد عليها تصرفات بعض من اليهود ، وخلال هذا الشتات والاضطهاد كان اليهود يرددون كلمات التوراة (كذلك يفرح الرب لكم ليفنيكم ويهلككم فتستأصلون من الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها ، ويبددك الرب فى جميع الشعوب من أقصاء الأرض إلى أقصائها) تثنية ٢٨ : ٦٣ . وكان الحل فى تقديرهم أن يسترضوا الرب باتباع الشريعة ، التى صارت هى التلمود ، أى التعاليم والتفاسير التى يقدمها الأحبار ، أى فقه رجال الدين . ونتيجة لهذا الاستمساك الشديد بالثقافة اليهودية أن عزلتهم هذه الثقافة عن المجتمعات التى كانوا يعيشون فيها ، وزاد من عزلتهم وجود أماكن خاصة لهم (الجيتو اليهودى) يسكنون فيها لكى يمارسوا شعائرهم ويتبعوا ثقافتهم دون

اضطراب ، وتعلق أمل الجميع برضاء الرب عليهم فينهى شتاتهم ويعيدهم إلى الأرض التى كان آباؤهم يقيمون فيها ، حيث يعيدون بناء الهيكل فى أورشليم القدس . وفى الأعياد ، كما فى كل المناسبات الدينية ، كانوا يحيون بعضهم البعض قائلين (العام القادم فى أورشليم) .

بدأت الأمور تتغير قليلاً عندما نشأت البورجوازية (الطبقة الوسطى) وأقيمت المدن الكبيرة ، واتجه اليهود فى الأعمال المالية وجهة أخرى بدأ بها النظام المصرفى الحديث . كان الشخص الذى يرغب فى السفر من روما إلى باريس مثلا ، يخشى أن يحمل معه نقوده وهى من الذهب ، حتى لا تُسرق منه خلال طرق طويلة غير آمنة ، تعبر بلادًا شتى ، ولا توجد سلطة مُوحدة تسيطر عليها وتحرسها . ونظرًا لتشتت الأسر اليهودية فى أكثر من بلد فقد كان من الأيسر على المسافر أن يسلم أمواله إلى يهودى فى روما ويأخذ منه صكًا إلى قريب له فى باريس ، ليدفع لهذا الشخص قيمة الصك حين يصل إليه ، ويكون لليهودى الذى سدد فى باريس قيمة الصك المحول عليه من روما أن يفعل نفس الشىء فيكتب صكا لشخص من باريس يريد أن يأخذ ماله فى روما ، ومن ثم تحدث المقاصة بين قيمتى الصكين .. وهكذا .

وعندما بدأ النظام المصرفى فى الاستقرار ، واتخاذ شكل عالمى ، صار لليهود فيه أثر كبير انعكس على كثير من الأنشطة الاقتصادية والصناعية ثم صار ذا فاعلية سياسية متعاظمة ، استفاد من الشتات بما جعل النفوذ اليهودى فعالاً ومؤثرًا على مستوى صُنَّاع القرار ، من الروسيا (ثم الاتحاد السوفييتى) شرقا حتى الولايات المتحدة غربًا ، وفى كل البلاد بينهما .

عادت الدولة الوطنية إلى الظهور إثر اندلاع الثورة الفرنسية (١٧٨٩) ،

فكان الفرنسى يخاطب بلفظ « المواطن » تأكيدًا على الارتباط بالوطن واستبعاد الفرز الدينى أو التمييز الطبقى . وإذ انتشرت الدول الوطنية فى أوروبا وفى الشرق الأوسط وفى أمريكا ، فقد بدأ بعض اليهود يتطلعون إلى إنشاء دولة لهم ، ينقلون إليها الجيتو اليهودى ، حيث يستطيعون ممارسة شعائرهم ومباشرة ثقافتهم دون خوف وبغير خفاء .وعضّد الفكرة أن اليهودية ، مع ظهور مبدأ الجنسية فى الدولة الوطنية ، صارت لليهود جنسية بقدر ما هى شريعة . ذلك أنهم خشوا أن يؤدى الاندماج الكامل فى المجتمعات غير اليهودية إلى أن تخفت شعائرهم وتذوب ثقافتهم ، فتواصلوا مع الناس فى كل مجتمع يعيشون فيه ، وخاصة من خلال التجارة والاقتصاد ، لكن كل فرد منهم ظل يحمل الجيتو فى داخله ، ويطوى عليه فكره ومشاعره ، وبذلك صارت له جنسيتين إحداهما اليهودية .

فى أخريات القرن التاسع عشر أنشأ الصحفى النمساوى تيودور هرتزل الحركة الصهيونية التى تستهدف إقامة دولة إسرائيل ، وعُقد أول مؤتمر لذلك فى مدينة (بازل فى ٢٩ أغسطس ١٨٩٧) بسويسرا ، حيث تقرر تكوين منظمات صهيونية فى البلاد التى يوجد فيها عدد كاف من اليهود ، وعملت الحركة بدأب وتواصل على تحقيق أهدافها ، دون ضجيج وبغير صخب وعلى الرغم من أن كثيرًا من زعماء الحركة لم يكونوا متدينين فإنهم أصروا على أن تقام الدولة فى فلسطين ، وتكون القدس (أورشليم) عاصمتها ، لما فى ذلك من معنى تاريخى وعاطفة دينية (أو جنسيّة) تستثير اليهود فى العالم أجمع ، وتدفعهم إلى الهجرة إلى فلسطين ، أو المساعدة بالنفوذ والمال لتحقيق حلم أجدادهم وآبائهم فى العودة إلى أورشليم . ولأن قادة الحركة الصهيونية لم يكونوا متدينين تمامًا ، فإنهم استطاعوا تجاوز التفسير الحرفى للنص الدينى ، وقدموا تفسيرًا جديدًا ، فبينما كان التفسير

التقليدى يقوم على أن الرب لن يسمح لليهود بإقامة دولة لهم وإعادة بناء الهيكل المقدس إلا إذا التزموا كليّة أحكام الشريعة (وهى التلمود ، أى آراء الأحبار ، أى فقه الناس) فإن الصهيونية عكست التفسير وألحّت على أن إرادة اليهود ينبغى أن تعمل لكى تحقق إرادة الله ؛ وهو التفسير الذى تداعى حتى قال بن جوريون أحد مؤسسى دولة إسرائيل : إن جيش الدفاع الإسرائيلى هو الذى يفسّر التوراة . بذلك أصبح الواقع هو الذى يفسر النص الدينى بعد أن كان هذا النص هو الذى يقبض على الواقع .

فى الحرب العالمية الأولى كانت بريطانيا وفرنسا فى مأزق حقيقى أمام القوات الألمانية . وإذ استقرأ زعماء الصهيونية الواقع وتفهموا المستقبل فقد رأوا أن مفتاح الشرق الأوسط آنذاك هو فى يد بريطانيا ، ومن ثم فقد سعوا للاتفاق معها حتى أصدر بالفور وعده فى ٢ نوفمبر ١٩١٧ بتعاطف بريطانيا مع إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين . ونتيجة لذلك فقد عمل النظام المصرفى العالمى – وهو تحت سيطرة اليهود – على ضرب المارك الألمانى فانهار ومن ثم انهار الاقتصاد الألمانى ، فانهزمت ألمانيا القيصرية بينما كانت منتصرة عسكريًّا على كل الجبهات . ولما قامت النازية بحكم ألمانيا تحت زعامة هتلر عمدت إلى الانتقام من اليهود جميعًا فاضطهدتهم بأسلوب لا إنسانى ، كما فعلت مع غيرهم من الألمان والفرنسيين والروس والبريطانيين .

غير أن الفظائع التى ارتكبت مع اليهود ، وإصرار النازى على ضرورة تصفية المسألة اليهودية ، ثبت فى الفكر العالمى وقائع اضطهاد النازى لليهود بالذات ، وعلى الرغم من أن الحركة الصهيونية بدأت قبل النازى بكثير (أواخر القرن ١٩) فإنها استثمرت هذا الاضطهاد ليكون عونًا أدبيًّا لإنشاء دولة إسرائيل حيث لا يكون ثم اضطهاد لليهود .

إثر وعد بالفور ، ومنذ النصف الأول من العشرينيات بدأت الهجرة اليهودية تتكثف إلى فلسطين ، وأنشئت فرق عسكرية للمساعدة فى إنشاء الدولة ، هى الهاجاناه (جيش الدفاع) وشيترن (ليهى) وأرجون زفاى ليومى (إيزل أو المنظمة الوطنية العسكرية) ، وقامت بعض هذه الفرق بأعمال إرهابية جرحت مشاعر العرب بعنف وأغضبتهم بشدة . وصدر قرار الأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ بتقسيم أرض فلسطين إلى دولتين : عبرية لليهود ، وعربية للفلسطينيين ، فقبل اليهود القرار وهم يضمرون نقضه ، بينما تصرف العرب بعفوية وانفعالية فرفضوا القرار ، وهم لا يملكون العناصر التى تمكنهم من هذا الرفض ، وبذلك بدوا أمام العالم أمة عدوانية ترفض قرار المجتمع الدولى وتأبى السلام . وعمل اليهود بدهاء على استدراج العرب إلى حروب ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ وهم غير مستعدين لها ، فهزموا فيها جميعًا وكسبت إسرائيل كثيرًا ، بل وصارت بعد حرب ١٩٦٧ ، إسرائيل العظمى التى تحتل القدس (أورشليم) وتعمل على جعلها عاصمة لها ، فتحقق بذلك حلم الأجداد ، وتقدم تفسيرًا جديدًا للتوراة ، بفوّهات المدافع ودهاء السياسة بدلاً من تفاسير الأحبار والبكاء على الأطلال .

بهذا تحول الوعد التوراتى ليصبح واقعًا عسكريًّا ، يحقق حلمًا تاريخيًّا ليهودية ثقافية أكثر مما ينفذ حكمًا دينيًّا لإسرائيليين موحدى الجنس أو متحدى العنصر ، ومن ذلك يبين أنه لما تجاوز اليهود التفسير الحرفى للنصوص وأعرضوا عن الرأى الجامد للأحبار ، استطاعوا أن يحولوا الكلام إلى حقيقة ، وأن يحققوا الشريعة فى حضارة . وبالحقائق الواقعة والحضارة المتكاملة ، تحدّت إسرائيل العرب ، ومازال التحدى قائمًا ، وسوف يظل ،

إلى أن يأخذ العرب بأسباب الحضارة فيتبعوا المنهج العلمى ، ويحققوا المنطق العقلى ، ويؤكدوا النظـام الخلقى ، فيكونـوا أكفاء فى أى صراع حضارى .

تلك هى حال الأرض الموعودة فى التوراة ، فما هو شأن هذا الوعد فى القرآن الكريم ؟ ذلك هو الوجه الآخر من العملة ، أو الوضع المقابل فى الصراع الحضارى بين العرب وإسرائيل .

٧
الإسلام واليهود

عندما جاء الوحى إلى النبى محمد ﷺ أول مرة ، فزع واضطرب ، وذهب مع خديجة زوجه إلى ابن عمها ورقة بن نوفل الذى قال عن الوحى « إن هذا هو الناموس الذى كان ينزل على موسى ، وإن محمدا لنبىّ هذه الأمة (أمة العرب) » ، بذلك القول فإن ورقة تخطى المسيحية (النصرانية) كما تجاوز عيسى عليه السلام ، ورابط بين موسى ومحمد ﷺ ، كما وحدّ بين الوحى (أو ملاك الرب) الذى ظهر لموسى والوحى (الملك) الذى جاء إلى النبى .

ورقة بن نوفل هذا ، كان نصرانيا يقرأ التوراة والإنجيل ، ويعرف اللغة العبرية ، ويترجم منها إلى العربية ، وقد صار من جماعة الحنيفية ؛ وهى جماعة من أفراد متفرقين كانوا يرون أن الشريعة القويمة هى فى اتباع ملّة (طريقة) إبراهيم ، وكانوا يختتنون دون أن يتهودوا ، وأطلق عليهم اليهود لفظ الحنيف العبرى ، بمعنى المائل (أى الذى حاد عن شريعتهم) ، ثم صار اللفظ – لدى عرب ما قبل الإسلام – يطلق على كل فرد من الجماعة المذكورة (الحنيفية) . وورقة هذا ، الذى بشر النبى محمدا ﷺ بأنه نبى هذه الأمة ، وأن الناموس الذى جاءه هو الناموس (الوحى) الذى كان ينزل على موسى ، توفى فى السنة الثالثة للبعثة النبوية دون أن يُسلم .

تواتر نزول الوحى على النبى ﷺ منذ جاءه أول مرة حتى وفاته (٦١٠-٦٣٢) وخلال هذه الفترة (٢٣ سنة) نزل القرآن منجمًا ، أى مجزءًا ، كل آية منه أو كل مجموعة من الآيات تتنزل لأسباب ، فى مكانها وزمانها ، حتى اكتمل القرآن . وقد وردت قصة موسى به فى ثمانية عشر موضعا ، كما أن اسم موسى تكرر ١٣٦ مرة ، وورد لفظ بنى إسرائيل فى ٤٠ مكانًا ؛ وهو ما يدل على عناية خاصة بموسى ، وخطاب مميز لبنى إسرائيل .

من القرآن ، ومن القرآن وحده ، ينبغى استبانة حقيقة الوحى ، ومعنى الألوهية ، والخطاب القرآنى لبنى إسرائيل ، وشأن الأرض الموعودة أو أرض الميعاد .

فى القرآن ﴿نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين﴾ سورة الشعراء ٢٦ : ١٩٣ - ١٩٥ . وفيه ﴿علّمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى﴾ سورة النجم ٥٣ : ٥ - ٦ ، وفيه ﴿وما نتزل إلا بأمر ربك﴾ سورة مريم ١٩ : ٦٤ . ومفاد ذلك ، وغيرها من الآيات ، أن الوحى الذى جاء إلى النبى ﷺ كان يتنزل بأمر الله ، على قلب النبى . وهو معنى يفاصل بين الوحى (الملك) وبين الله ذاته ، ولا يخلط بينهما ، أو يضع أحدهما موضع الآخر .

والقرآن يقطع بأن الله ، الذى يدعو إلى عبادته وحده بلا شريك ، هو رب العالمين ، وإله كل الرسل والأنبياء ، وهو الذى أوحى إليهم رسالاتهم ودعواتهم ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ سورة الشورى ٤٢ : ١٣ ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى

موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ سورة البقرة ٢ : ١٦٤ ، ﴿ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾ سورة النساء ٤ : ١٦٤ ، ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ سورة الأنبياء ٢١ : ٢٥ ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون ، وسليمان ، وآتينا داوود زبورًا﴾ سورة النساء ٤ : ١٦٣ .

وحى الله إلى الرسل والأنبياء ، الذين قص القرآن عنهم والذين لم يقصص ، محدد فى القرآن ﴿ ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء﴾ سورة الشورى ٤٢ : ٥١ ، أى أن الله لا يكلم بشرا قط وإنما يوحى إليه ما يبثه فى روعه أو ينفثه فى وعيه ، أو يكون ذلك من وراء حجاب ، أى من خلف حاجز (معنوى أو غيبى لا شك) ، أو يرسل إليه رسولاً فيوحى الرسول إلى البشر ، لهذا جاء إثر الآية الأخيرة آية تقول ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا﴾ سورة الشورى ٤٢ : ٥٢ ؛ بمعنى أن الوحى إلى النبى محمد ﷺ كان عن طريق رسول من عند الله أو روح من أمره . ماحدث لموسى إذن ، حيث كلّمة الله ، كان استثناء من القاعدة أو شأنًا خاصًّا به وحده ، ذلك أن القرآن يقطع بأن الله كَلم موسى بالكلام ﴿ وكلم الله موسى تكليمًا﴾ سورة النساء ٤ : ١٦٤ ، وتكون آية ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله﴾ سورة البقرة ٢ : ٢٥٣ ، إشارة إلى موسى وحده ، الذى وردت الآية تقطع بأن الله كلمه تكليما ، أى بالكلام المباشر وليس بالإلقاء فى الروع أو النشر فى الوعى .

بهذا يقطع القرآن كذلك أن الذى كلّم موسى كلامًا مباشرًا هو الله وليس الملك (أو ملاك الرب) كما قد يستفاد من النص التوراتى .

فيما يتعلق برسالة موسى إلى فرعون ، فإن القرآن يؤيد رواية التوراة فى هذا الصدد ، ثم يستطرد إلى أمر آخر لم يرد فيها ، ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين .. فأتيا فرعون فقولا (موسى وهارون) إنا رسول رب العالمين ، أن أرسل معنا بنى إسرائيل .. قال فرعون وما رب العالمين .. قال (فرعون) لئن اتخذت إلهًا غيرى لأجعلنك من المسجونين ..﴾ سورة الشعراء ٢٦ : ١٠ - ٢٩ . فوفقًا لما جاء فى القرآن ذهب موسى وهارون إلى فرعون يسألانه أن يرسل (يُطْلق) معهم بنى إسرائيل ، استطرد الحوار فلما سأل فرعون عن سبب ذلك وقال موسى ﴿فوهب لى ربى حكمًا وجعلنى من المرسلين﴾ سورة الشعراء ٢٦ : ٢١ ، عجب فرعون وهدد إن هما (موسى وهارون) اتخذا إلهًا غيره فسوف يسجنهما ، ثم توالت الأحداث . موسى إذن - على ماجاء فى التوارة وفى القرآن - لم يرسل إلى فرعون أصلاً برسالة هداية ، بل ليطلب إطلاق بنى إسرائيل ، ثم تداعت الواقعات ، على النحو الذى فصله القرآن ؛ وهو أمر تؤكده الآية ﴿ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل﴾ سورة الأعراف ٧ : ٣٤ . فالقضية الأساسية كانت إرسال بنى إسرائيل مع موسى خارج مصر ، ولم تكن هداية قوم فرعون .

لم يحدث جمْع القرآن وفق نظام تاريخى ، يراعى وقت نزول كل آية على مدى ٢٣ عاما ، وإنما تم الترتيب على أساس توقيفى ، إذ استقر الأثر الإسلامى على أن الوحى هو الذى نظمه مع النبى ﷺ ، وقد قام

المستشرق الألمانى نولدكه بمحاولة لترتيب آيات القرآن باعتبار وقت نزولها ، غير أن كتابه فى ذلك بالألمانية ، ولم يُترجم إلى العربية ولا إلى الإنجليزية ، وقام المستشرق الفرنسى بلاشير بمحاولة أخرى ، غير أنها لم تَلْقَ ذيوعًا . وبصدد الآيات التى تتضمن خطابا لبنى إسرائيل ، ولأنها تتضمن فى بعضها تقديرًا وفى بعضها تكديرًا ، فإن تلمس أوقات تنزيلها ضرورة لا مفر منها ، وهو أمر لابد أن يستقصى الظروف التاريخية ويستنطق السياق القرآنى ؛ إذ يلوح أن آيات التقدير جاءت أولاً ثم تلتها آيات التكدير ، عندما حدث خلاف بين المسلمين واليهود .

ففى القرآن ﴿يابنى إسرائيل أذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين﴾ سورة البقرة ٢ : ٤٧ ، ﴿ يابنى إسرائيل أذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوفِ بعهدكم﴾ سورة البقرة ٢ : ٤٠ ، ﴿ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين .. ولقد اخترناهم على علمٍ على العالمين﴾ سورة الدخان ٤٤ : ٣٠ - ٣٢

وبصدد الأرض الموعودة ، أو أرض الميعاد ، جاء فى القرآن ﴿يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن﴾ سورة طه ٢٠ : ٨٠ ، ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ سورة البقرة ٢ : ٩٣ ، ﴿ إذ قال موسى لقومه يا قوم أذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكًا وآتاكم مالم يؤت أحدًا من العالمين . ياقوم أدخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم﴾ سورة المائدة ٥ : ٢٠-٢١ ، ﴿قلنا .. لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض﴾ سورة الإسراء ١٧ : ١٠٤ .

لو فُسرت آيات الخطاب القرآنى لبنى إسرائيل على عموم ألفاظها ،

على النحو الذى تقرره القاعدة الفقهية التقليدية فى التفسير ، لكانت نتيجة ذلك أن بنى إسرائيل مفضلون من الله على العالمين بإطلاق ، وأنهم الشعب المختار ، اختارهم الله على علم ، وأقام عهدًا بينه وبينهم ؛ أما عندما تُفسَّر هذه الآيات وفقا للقاعدة الأصولية التى تربط تفسير الآيات بأسباب تنزيلها ، وتفهمها فى السياق التاريخى التى وردت ضمنه ، فإنها تفيد أنها خاصة ببنى إسرائيل فى عهد موسى ، ولا تمتد إلى سواهم ؛ على الرغم من أنها خطاب لبنى إسرائيل المعاصرين للنبى وقت التنزيل ، فهذا الخطاب خطاب للتذكير بأمر مضى وليس خطابًا للتأكيد على واقع حاضر ؛ خاصة أن اليهود الذين كانوا فى أرض الحجاز وقت تنزيل القرآن هم يهود بالثقافة أو يهودًا بالشريعة ، وليسوا يهودًا بالجنس أو يهودا بالعنصر ؛ ذلك بأن بنى إسرائيل بالجنس والعنصر كانت قد تبددت منهم عشر قبائل — على ما سلف البيان — إثر تشتيت الآشوريين لهم من مملكتى إسرائيل ويهوذا ، ثم دخل اليهودية كثير من خارج الجنس الأصلى والعنصر الأول ، فأصبحت اليهودية معنى ثقافيًا يضم اليهود بالثقافة أو بالشريعة ، ولا يقتصر على أبناء وأحفاد يعقوب من صلْبه ، وأصلاب أولاده وأحفاده ، على عامود الخَلف .

أما الآيات الخاصة بأرض الميعاد ، الأرض المقدسة الموعودة ، فإنه تسرى عليها نفس القواعد السابقة ، فلو فُسرت على عموم الألفاظ لكان الوعد بالأرض قائمًا مستمرًا إلى الأبد ، وهذا عين ما يقوله متطرفو اليهود . ولو فسرت على أسباب التنزيل ووفقا للسياق التاريخى ، فإنها تعنى أنها حكم مخصص بجماعة بعينها وموقوتة بفترة بذاتها ، وقد انتهى الحكم بالشتات الذى أكدت عليه النصوص التوراتية ويكون خطاب القرآن ليهود عصر النبى بها هو خطاب على التبكيت وليس خطابًا إلى التثبيت .

وكذلك الحال فى الآية ﴿ وأوفوا بعهدى أوفى بعهدكم ﴾ ، فالعهد ، أو الميثاق كما يقول القرآن ، هو الذى قام بين موسى وقومه وبين الله ، لعبادته وحده والاستقامة فى التصرف ، فلما حدث نقض للعهد جاء الجزاء فى الشتات والآلام والأحزان . ولا يغير من هذا النظر أن التعبير القرآنى ، فى هذه الآية والآيات الأخرى السالفة ، جاء فى ضمير المخاطَب وبصيغة الحاضر ، لأن التعبير بذلك أسلوب قرآنى دارج ، يستخدم ضمير المخاطَب للفت النظر وشد الانتباه ، ويفرغ الماضى فى صيغة الحاضر لربط حلقات التاريخ وجعلها منظورًا واحدًا .

عندما سمع يهود يثرب (المدينة) عن النبى ﷺ سرّهم أمره ، خاصة مع مافى آيات القرآن من عناية بموسى نبيهم وكليم الله ، ولما فى القرآن فى خطاب مميز لهم معنىً بتاريخهم ، وكان ميل اليهود للنبى ﷺ من الأسباب التى ساعدت على مبايعة جماعة من قبيلتى الأوس والخزرج – القحطانيتين والمقيمتين فى يثرب – للنبى ثم هجرته إليهم .

حينما كان النبى على مشارف يثرب قال اليهود للعرب من أهل المدينة : هذا جَدّكم ، أى هذا حظكم . وقد أقام النبى ﷺ والمهاجرون فى يثرب التى سميت مدينة النبى أو المدينة اختصارًا إلى أن حدثت وقعة بدر (رمضان سنة ٢ هـ) فرأى النبى ، فى فطرة ثاقبة وحنكة عملية أن يعقد حلفًا بين المؤمنين والمسلمين من قريش (المهاجرون) ويثرب (المدينة ، وهم الأنصار) وبين يهود المدينة ، وهو الحلف الذى حُرِّر فى صحيفة وأخذ اسمها ، وفيها تم الاتفاق على التعاون بين المتحالفين ، وأن يظل كل فريق على رَبْعته (أى على وضعه) بحيث يبقى اليهود يهودًا والمسلمون مسلمين ، لكل منهم نظامه وعوائده . وأن ينفق اليهود مع المؤمنين ماداموا محاربين ،

فيكون على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، فيتناصرون ويتبارّون ويتقاسمون الغنائم .

وقد لوحظ أن الصحيفة خلت من البطون الكبيرة فى الأوس والخزرج ، كما خلت من قبيلة بنى قينقاع اليهودية . غير أنها تضمنت اليهود من موالى بنى النجار ، وبنو النجار هؤلاء هم أخوال النبى ﷺ .

يهود يثرب (المدينة) كانوا ثلاث قبائل رئيسية : بنو قينقاع ، وبنو النضير وبنو قريظة ، وقد وقع بينهم جميعا خلاف شديد مع النبى ﷺ والمسلمين لأسباب كثيرة ، أهمها أسباب ثلاثة :

أولاً : فقد رفض اليهود جميعا أن يتحولوا إلى الإسلام ، فيما خلا عددًا قليلاً ، منهم : كعب الأحبار ، وعبد الله بن سلام ، وعبد الله بن سبأ (وإسلامه متأخر) ، وهؤلاء وغيرهم منهم أساءوا إلى الإسلام كثيرًا من داخله ، إذ نقلوا إلى الفكر الإسلامى آراء خاطئة وتفاسير مغلوطة ومعلومات شعبية (فولكلورية) مضطربة ، مما أصبح يعرف بالإسرائيليات التى تُحدث اضطرابًا شديدًا فى الفكر والوجدان الإسلامى ، ومن الصعوبة البالغة أن يمكن فصلها وتجنيبها دون مآس بالغة وصراعات خطيرة . ويكفى فى ذلك أن يذكر التاريخ الإسلامى أن لابن سبأ أثرا كبيرًا فى حدوث الفتنة الكبرى أيام عثمان وعلى ، وهى فتنة أثرت على التاريخ الإسلامى والفكر الإسلامى والمسلمين أنفسهم بصورة لم تزل قائمة حتى اليوم ، وسوف تظل إلى مستقبل بعيد . وكانت وجهة نظر اليهود فى عدم اعتناق الإسلام أن النبى محمدًا ﷺ هو نبى إلى أمته من العرب ، وأن نبيهم لابد أن يكون من نسل داوود ، أى بنى إسرائيل ، وليس من ولد إسماعيل .

ثانيًا : وقد قام بعض المسلمين من قبيلتى الأوس والخزرج باغتيال يهوديين كان لهما شأن مهم ، هما كعب بن الأشرف أحد كبار يهود بنى النضير ، وأبو رافع سلام بن أبى الحقيق ، وكان سبب الاغتيال أن هذين اليهودين أظهرا عداوة للنبى ، وقد هجاه كعبٌ بشعر رأوا فيه إساءة للنبى .

وعلى الرغم من أن كتب السيرة تؤكد موافقة النبى على الاغتيال ، بل والأمر به ؛ وقد ورد فى صحيح البخارى حديثان (من أحاديث الآحاد) يأمران بالاغتيال (مَنْ لكعب بن الأشرف ، ومن لأبى رافع ؟) وهو الأمر الذى يدعو المحرضين على اغتيال الأحرار والمستنيرين فى الوقت الحالى أن يقولوا ويكتبوا « إن الشباب المسلم يعرف سنة النبى » يقصدون تحريض الشباب المغرر به على اقتراف وقائع اغتيال مماثلة ، لمن هو خصم لهم يعدونه خصمًا للإسلام ظلمًا وعدوانًا ؛ على الرغم من ذلك ، فقد أثبتنا بأدلة قاطعة أن النبى لم يأمر ، ولا يمكن أن يأمر ، بمثل هذا الاغتيال (يراجع كتابنا معالم الإسلام ، الفصل الخاص بتاريخ الإرهاب فى الشرق الأوسط) .

ثالثًا : وقد وقعت أحداث فردية ، أو خاصة ، بكل قبيلة على حدة ، إذ وقع نزاع بين يهودى وجماعة من المسلمين فى سوق بالمدينة ، وانتهى الأمر بإجلاء يهود بنى قينقاع من المدينة ، وتقول كتب التاريخ الإسلامى إن بنى النضير تآمروا على قتل النبى ﷺ بإلقاء حجر من علوٍّ عليه وهو جالس . وانتهى الأمر بإجلاء يهود بنى النضير من المدينة ، فذهب بعضهم ومنهم حُيَيّ بن أخطب والد صفية زوج النبى إلى خيبر ، بينما اتجه الآخرون شمالاً إلى الشام ، وكانت قبيلة بنى قريظة تقيم فى حصن على طرف المدينة ، فلما تسامع المسلمون باتجاه الأحزاب إليهم لحصارهم وإفنائهم فى المدينة ، أقاموا خندقًا حولها (بمشورة سلمان

الفارسى) ، وكان الخندق يحيط المدينة من كل نواحيها عدا منطقة واحدة كان فيها حصن بنى قريظة . ورد فى كتب السير أن يهود بنى قريظة قدموا للمسلمين أدوات سهلت حفر الخندق وحجزت الأحزاب عن دخول المدينة إلا أن يَسْمح لهم بنو قريظة بالعبور إليها من داخل حصنهم . وأرّق هذا الاحتمال النبى ﷺ والمسلمين حتى انتهت الغزوة دون غزو ، إذ دُبرت وقيعة بين اليهود والأحزاب ، وترك هؤلاء مواقعهم وعادوا إلى مكة بغير حرب . وحكم سعد بن معاذ زعيم الأوس بقتل رجال اليهود وسبى نسائهم وأطفالهم جزاء خيانتهم ، ونُفذ الحكم فعلاً .

قامت العداوة إذن بين المسلمين واليهود ، واشتدت فى بعض الأحيان واستُعملت فيها صياغات دينية وعبارات قاسية ، وظل الحال كذلك ، بين مد وجزر ، صعود وهبوط ، حتى أشرقت شمس الحضارة الإسلامية فى القرون الثانى والثالث والرابع الهجرى (الثامن والتاسع والعاشر الميلادى) فأذابت بحرارتها كل الخصومات وأنارت بأشعتها الجوانب الزاهية فى الطابع الإسلامى ، فامتلأ جو الحياة الاجتماعية والفكرية بالتسامح والتفاهم والتوادّ . وأنس اليهود وأُمنوا للعيش فى الديار الإسلامية أكثر مما أنسوا وأمنوا بالعيش فى أى مكان آخر . وظل الحال كذلك حتى صدر وعد بالفور ، ثم تكثفت الهجرات اليهودية إلى أرض فلسطين ، ثم بدأت المنظمات العسكرية الصهيونية فى عملياتها العسكرية ضد الأبرياء الآمنين من عرب فلسطين مسلمين ومسيحيين ، ثم صدر قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين ، ثم أُعلن إنشاء دولة إسرائيل فى ١٥ مايو ١٩٤٨ ، ثم استدرج العرب بدهاء سياسى محكم إلى حروب ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ فهزموا فيها جميعًا ، وران الإحباط على

نفوس العرب وحلت المرارة فى حلوقهم وسرى الغضب فى دمائهم ، واستعيدت عداوة الماضى من جديد .

خلال ذلك كله استُخدم الدين حتى من غير المتدينين على الجانبين . فالصهيونية ذات النزعة غير الدينية استعملت ورقة الدين لتقنع البسطاء ، وغير البسطاء ، من اليهود بالهجرة إلى أرض الميعاد ، وتحقيق الإرادة الإلهية ، وتأكيد رضاء الرب عنهم ، وإعادة بناء الهيكل المقدس فى أورشليم عاصمة إسرائيل منذ ٣٠٠٠ سنة ، كما يقال . وهى كلها أقوال تخالف ما يعرفه علماء التاريخ ، حتى من اليهود ، وتُسقط عامل الزمن ، وتغفل التطور البشرى والعقائدى خلال آلاف السنين ؛ هذا فضلا عن أنها تتصرف كما لو كانت اليهودية لجنس بذاته أو لعنصر خاص ، مع أن اليهودية صارت منذ زمن بعيد يهودية ثقافية تضم المعتنقين لشريعتها والمنطبعين بثقافتها مهما كانت أصولهم غير إسرائيلية ، شأنها فى ذلك شأن العروبة الثقافية ، التى تضم شعوبًا شتى من أصول فرعونية وقبطية وآشورية وفينيقية وبربرية ونوبية وغيرها .

وعمدت جماعات الإسلام السياسى (وهى الوجه المقابل بين المسلمين للأيديولوجية اليهودية ، أى الصهيونية) ، إلى تديين الصراع العربى الإسرائيلى . وفى ذلك فقد لجئوا إلى آيات قرآنية يريدون بها أن يدمغوا اليهود عمومًا بأنهم أعداء الله ، وأن الله قد ضرب عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب منه ، وأنهم أبناء القردة والخنازير ، ففى القرآن ﴿ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ سورة آل عمران

٢ : ١١٢ ؛ ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ سورة البقرة ٢ : ٦٥ ، ﴿وجعل منهم القردة والخنازير﴾ سورة المائدة ٥ : ٦٠ .

والذى يقرأ هذه الآيات بالمنطق العقلى والمنهج القرآنى ، بعيدًا عن الجدل السياسى والتخطّف اللفظى ، سوف يرى ، ما هو واضح من الآيات السابقة عن بنى إسرائيل ، أنها تتعلق بجماعة منهم مضت وأمّة منهم خلت ، ولا يتصل بغير هؤلاء أبدًا . ففى الآية الأولى – مثلاً – ما يشير إلى قتل الأنبياء ، وهو مالم يحدث من يهود عصر النبى ، ولا من غيرهم بعده لانتهاء النبوات . ولو أن الوحى قصد غير ذلك ، أو أن النبى فهم ماعداه ، لما دعا إلى رسالته قومًا ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ؛ وكيف يسعى إلى هداية قوم مغضوب عليهم ، ومحكوم عليهم بالهوان ، وهم ليسوا بشرًا بل قردة وخنازير ؟ يضاف إلى ذلك ، أن وصم شعب بعينه مدى الأجيال باللعنة الإلهية ووصفه طوال التاريخ بالذلة والمسكنة ، أمر ينافى روح الإسلام ويجافى نصوص القرآن التى تقوم على المسئولية الفردية أساسا بحيث لا يؤخذ الشخص إلا بعمله هو ، خيرًا بخير وشرًّا بشر ، بما يعنى أنه لا يؤخذ بعمل أجداده وآبائه ولايساءل عن عمل غيره قط ﴿قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون﴾ سورة سبأ ٣٤ : ٢٥ ، ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مُثْقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى﴾ سورة فاطر ٣٥ : ١٨ .

إن الحروب اللفظية والصراعات الكلامية التى تريد أن تستعمل الآيات السالفة مباشرة على عموم ألفاظها وتجعلها مطلقة فى كل اليهود ، عليها

أن تنتبه أن نفس المنطق الشائه وذات الأسلوب الخاطئ يؤدى إلى تعميم وإطلاق وديمومة الآيات التى تتعلق بتفضيل بنى إسرائيل على العالمين ، واختيار الله لهم على علم ، وكتابته لهم الأرض المقدسة ، أرض الميعاد . وفى التقدير السليم والتفسير السديد أنه لا هذه الآيات ولاتلك ، مطلقة مؤبدة ، لكنها مخصصة بقوم بذاتهم ، مؤقتة بفترة محددة ؛ وفيما عدا هؤلاء وفيما بعدهم ، فكل إنسان وعمله ، وكل فرد ومايأتى ، وكل امرئ وما يكون ؛ لا توريث للآثام ولا تخليف للأوزار .

الصراع بين العرب وإسرائيل صراع بين العروبة الثقافية واليهودية الثقافية ، أخذت فيه اليهودية بأسباب الحضارة فحققت – حتى الآن – نجاحًا عسكريًّا وفلاحًا حضاريًا ، بينما أعرضت العروبة عن أسباب الحضارة ، واكتفت منها بالمظهر البراق والترف الاستهلاكى ، فخابت وهزمت . وإنه من الضرورى أن يوصف الصراع بوصفه الصحيح وأن يوضع فى الموضع المضبوط ، حتى يمكن علاج الخطأ وتوقى الانحراف وتلافى الزيوغ . أما اللجوء إلى الظواهر الصوتية والمعارك الكلامية والصراعات اللفظية ، فهو أمر يفيد الخصم ولا يفيد العرب ، لأنه يفرّغ طاقاتهم فى الأصوات والألفاظ والكلام ، ولأنه يصيبهم بالخدْر الذى يحجبهم عن رؤية الحقيقة ؛ هذا فضلاً عن أنه يسىء للإسلام أيما إساءة ، حين يجعل من بعض آياته مفردات فى لغة السباب وشعارات فى المهاترات السياسية .

إن الصراع بين العرب إسرائيل صراع حضارى فى الأساس والجوهر والوسائل ، وإقحام الدين فى هذا الصراع ، أو استغلاله من أحد

الطرفين ، عمل أيديولوجى وعبث سياسى وعوج حزبى ، خاصة مع ما سلف تقديمه وتوثيقه من أن العرب عرب بالثقافة وأن اليهود يهود بالثقافة ، وأن العصر الحالى بإزاء عروبة ثقافية ويهودية ثقافية ؛ كل منها بعيد عن الجنس الواحد ، بعيد عن العنصر الفرد ، بعيد عن العرْق الخالص .

متى كان الحال كذلك ، فكيف يكون حل الصراع على أرض الواقع ! ؟ ذلك هو السؤال .

٨

البحث عن حل

إيجاد حلول واضحة ونهائية وحاسمة للمشاكل الدولية أو الإقليمية أو المحلية ليس أمرًا سهلاً أو عملاً ميسورًا ؛ لتعقد هذه المشاكل ، وتشابك خيوطها ، وامتداد جذورها ، وانتشار آثارها ؛ هذا فضلاً عن أن ثم أسبابا ثلاثة تعمل على تغييم رؤية الحلول الصحيحة وتغييب الحسم بشأنها ، تلك هى : المجال السياسى ، وعدم نضج الطبيعة البشرية ، وقصور الثقافة العامة مع نقص المعرفة الكونية .

فمقادير الشعوب ومصائر الأمم تُبرم وتُنقض فى ساحة السياسة ، وللسياسة قواعد للعمل وأساليب فى التصرف تخالف الأعراف المتواضع عليها بين الناس عادة ، وتجانب النظم الأخلاقية المتعارف عليها لدى الجميع ، ومن لا يعرف لغة السياسة ومفردات عملها يعجز عن التصرف ويفشل فى الوصول إلى أى نجاح ، ونتيجة لذلك فإن الواقع السياسى إمّا أنه لا يجيز للعمل فيه إلا من كان مؤهلا له بسلوكيات معينة ، إما أنه يفرض على من يعمل فيه أن يلتزم هذه السلوكيات ، حتى وإن خالفت طبيعته أو عارضت أخلاقياته ؛ ومن ثم فإن العاملين فى الحقل السياسى ، غالبًا ما يكونون ذوى طبائع خاصة تؤهلهم للعمل به وتساعدهم على النجاح فيه ، أو أن يتحولوا إلى أشخاص مزدوجى الشخصية ، لهم فى حياتهم العامة أسلوب خاص للعمل ، ولهم فى حياتهم الخاصة نظام آخر للعيش .

فى السياسة من ثمّ لا يوجد مجال حقيقى لمفاهيم العدل والحق ، فتلك مفاهيم تتعلق بالحياة الفردية الإنسانية ولا تصل إلى حلبة السياسة إلا ضمن معانى مختلفة ، ولإضفاء شرعية على واقع حاصل أو قوة مؤكدة ، ذلك أن اللغة الأساسية فى السياسة هى لغة الأمر الواقع (Accomplished Fact)، خاصة إذا كانت تحميه قوة رادعة ، وتذود عنه صلات كثيرة مؤثرة ، فى دوائر النفوذ العالمية أو الاقليمية أو المحلية ، حسب الأحوال .

يعنى ذلك أن مقادير الشعوب ومصائر الأمم تُبرم وتنقص ، وفقا للأمر الواقع ، والصلات المؤثرة فى دوائر النفوذ ، بعيدًا من مفاهيم الناس عن معنى الحق ، وخلافًا لتقديرات البشر عن مدلول العدل . ففى مجال السياسة يُعَدّ الحق ما وقع بالفعل ، ويعتبر العدل ما تحميه قوة مؤثرة .

وجدير بالذكر أنه فى المفهوم القانونى ، حتى فى النطاق الوطنى لأى دولة ، لا يكون للحق أى قيمة ما لم تَحمِه دعوى ، تُخول صاحب الحق اللجوء إلى السلطات للحصول على حكم قضائى يثبت حقه ، ثم تنفيذه بقوة السلطة ، فالأمر قريب بين كل من المجالين : الدولى والمحلى ، لا حق بغير قوة ، ولا عدل دون نفوذ .

وهذا المفهوم ليس وليد العصر الحاضر ، ولا هو نبت النظام الدولى الحالى ، لكنه واقع مؤكد على مدى العصور ، وإن بدا واضحًا فى الآونة الأخيرة ، بسبب التأكيد عليه من جانب المفكرين والمحلّلين والنقاد . ويمكن لإثبات حقيقة سريانه على مدى التاريخ ضرب أمثلة عديدة ، غير أنه يُجزئ عن ذلك ، ويكفى فى هذا المجال ذكر مثلين واضحين . فإثر الفتح العربى لمصر لم يدخل المصريون الإسلام ، بل ظلوا على مسيحيتهم مدة ثلاثة أو أربعة قرون ، حتى القرنين العاشر والحادى عشر الميلادى ، حين بدءوا

يتحولون إلى الإسلام زرافات ووحدانا . وفور الفتح العربى وفدت إلى مصر هجرات استيطانية كثيرة من أعراب شبه الجزيرة العربية ، وأقاموا فى الصحراء على حواف الوادى فى صعيد مصر ، الذى كان جوه يناسب الأجواء التى اعتادوا عليها ، ووضعوا فواصل وحواجز بينهم وبين أهل مصر الأقباط ، وفى الجزء الثانى من كتاب « وصف مصر » ، الذى وضعته جماعة من العلماء الذين صاحبوا الحملة الفرنسية ، بيان محقّق لذلك ، يصف كيف أن هؤلاء البدو كانوا يغيرون على القرى التى يقيم بها المصريون ، فى الوادى حول النيل ، ليسلبوهم وينتهبوهم ثم يعودوا إلى الصحراء فارّين بالغنائم . واقترح العلماء الفرنسيين ، للقضاء على هذه الظاهرة الخطيرة ، أن تقوم فى مصر حكومة مركزية قوية تعمل على دفع البدو من حواف الوادى إلى الوادى نفسه ، ليتخالطوا مع المصريين ويتعايشوا معهم ، وهو ما فعله محمد على والى مصر فيما بعد ، ومن ثم صار البدو مع الفلاحين شعبًا واحدًا ، وغير الأمر الواقع من الطبيعة السكانية والتقاليد السائدة فى مصر .

وفى عهد السلطنة العثمانية ، وقبل أن تتحول الخلافة الإسلامية إليها ، قام السلطان محمد الثانى الملقب بالفاتح (١٤٥١-١٤٨١م) بغزو القسطنطينية (بيزنطة) سنة ١٤٥٣ وحوّلها إلى عاصمة للسلطنة سماها استانبول (أو إسلام بول) وظلت مقرًا للسلاطنة الذين صاروا خلفاء المسلمين فيما بعد ، حتى نُقلت العاصمة إلى أنقرة ١٩٢٢ . ومازالت استانبول بلدًا تركيًا ، حوله إلى ذلك ، هذا الأمر الواقع الذى حدث إثر غزوها ثم استمر .

السياسة يمارسها رجالها ، ويباشرها قادة لها وعاملون فى حقلها . وهؤلاء غالبًا ما يصدرون فى أعمالهم عن نظر إلى صناديق الانتخاب فى

البلاد الديمقراطية أو يضعون فى تقديرهم حسابات التهييج الشعبى والتدليس القولى والتملق الجماهيرى فى البلاد ذات النظم الشمولية . وهم فى كل قول أو فعل يتصيدون تأييدًا لهم من الناس ، ولو بالكذب ؛ وتعضيدًا لهم من الجماهير ، وإن كان نتيجة للارتجالية ؛ ذلك أن رجل السياسة يعمل دائمًا على أن يحصد فى حياته ، وربما على الفور ، نتائج عمله التى لا يرى فيها نجاحًا إلا بالوصول إلى السلطة والبقاء فيها أطول فترة ممكنة ؛ وهذا مما يخالف طبائع الأشياء ، وقد يؤدى إلى أعمال تضر بمصالح الشعوب ، على المدى الطويل ، أو تحقق كوارث للأمم نتيجة الانفعال والتسرع والجرى وراء سراب المجد الموهوم . ولتلافى هذه المخاطر ، فقد حاولت بعض البلاد الديموقراطية أن تحدَّ من النتائج السيئة والمدمرة لأعمال الساسة ، ومن ثم أناطت دقائق الأمور بأجهزة ومؤسسات تتكون من متخصصين وعلماء يعملون فى صمت ، وبغير نظر إلى شهرة متسرعة أو مجد متعجل ، فيرسموا سياسة الدولة فى كافة المناحى السياسية والاقتصادية والعلمية والتربوية والإعلامية والعسكرية وغيرها ، بحيث لا يترك للساسة إلا أمر التنفيذ وتقدير المواءمة وتحديد الملاءمة .

والطبيعة البشرية لم تنضج بعد بصورة كافية ، فلا هى نمت روحيًّا ولا هى سمت خلقيًّا ؛ والاستثناء من ذلك لم يزل فرديًّا ونادرًا ؛ وفى هذا الصدد ، يقول الأثارى الأمريكى ج .هـ . برستيد فى كتابه الشهير « فجر الضمير » ، إن فجر الضمير بزغ فى مصر القديمة وتوهج فيها ، قبل ألفى سنة على الأقل من ظهور العبرانيين (آباء الإسرائيليين) ، وإن البشرية لم تكد تخطو خطوة واحدة بعد النظام الأخلاقى الذى ظهر فى مصر .

بأخلاقيات الماضى البعيد ، حيث كانت البشرية محدودة ، والمشاكل

ساكنة ، والنفوس صافية ، والأماكن متباعدة ، والأطماع مرفوضة ، والمعلومات قاصرة ، لم تزل الناس تعالج المسائل المعقدة وتواجه المشاكل المتفاقمة وتعيش فى العالم الذى صار قرية واحدة . بل إن التقدير السديد يرى أنه نتيجة لعوامل كثيرة فقد ظهر عنصر جديد ، هو منطق التبرير ولغة الأيديولوجية ، قلب من شأن الأخلاقيات فى تزييف واضح وتحريف خطير . ونتيجة لهذه اللغة وذلك المنطق فقد أصبح الغزو يسمى وطنية ، والقتل بطولة ، والسرقة عمولة ، والخيانة تفاهم ، والنفاق كياسة ، والظلم عدالة .

وهكذا فإن مجرد مراسم شكلية ومحض تلاعبات لفظية أدت إلى تخطى النظام الأخلاقى ، حتى على مستوى التعامل الفردى أو الوطنى ، بحيث أصبح المتمسك بالأخلاق والمُعْنَى بالضمير فردًا مغتربًا عن قومه وربما عن البشرية جمعاء .

فى هذا الجو المسموم بالتزييف والتحريف لأبسط القواعد وأنقى المبادئ تترعرع الاتجاهات المتطرفة والنزعات المتعصبة والادعاءات العدوانية ، ويسهل تهييج الناس وتوجيههم بالإشاعات الكاذبة والأساطير الموهومة والافتراءات الباطلة ، وتسكينهم فى أحلام زائفة أو توثيقهم بخرافات ضالة ، وليس أدل على صحة ذلك من أن كثيرًا من اليهود مازالوا يعيشون فى نفس الأفكار والمقولات التى عاش عليها بنو إسرائيل منذ ٣٠ قرنًا مضت ، وأن كثيرًا من المسلمين مازالوا يعيشون فى نفس المعارك وذات الشعارات التى حدثت بها الفتنة الكبرى فى الإسلام منذ ١٤ قرنًا مرت . هذا إلى أن الحرب العالمية الثانية التى مات فيها ملايين من الشباب والأبرياء قامت بسبب حرائق عنصرية أشعلها النازى بأقوال حادة وشعارات حارة ،

فلما هُزم النازى بدا الوضع كله كابوسًا مزعجًا ، لا أساس له ولا صحة فيه .

وثَمّ قصور حاد فى الثقافة العامة ونقص شديد فى المعرفة الكونية . فإذا كانت الأمية الأبجدية تضرب أطنابها بعمق فى كثير من مناطق الشرق الأوسط (كما فى مناطق متعددة فى كافة أنحاء المعمورة) فإن الأمية الثقافية والأمية السياسية تزيد عنها وتعلو عليها بكثير ؛ فأغلب الناس – سواء بين العرب أو الإسرائيليين – ليست لديهم فيما عدا ما يلزمهم لكسب العيش ، أى ثقافة حقيقية أو معلومات صحيحة ، فى التاريخ أو الاجتماع أو الفن أو السياسة أو غيرها ، وكل ما عندهم فى ذلك إشاعات غير محددة أو نثارات غير موثقة أو شذرات غير مؤكدة ، وهم فى الغالب لا يقرءون ، وإن حدث وقرءوا ولو كتابًا ، فغالبا ما يكون من الكتب سطحية التناول ساذجة النتائج ، تتصل بموضوعات الإثارة أو ترتبط بعوامل الانفعال . وعندما انتشر التليفزيون فإنه أصبح فى بلاد العالم الثالث ، ومنها أغلب البلاد فى الشرق الأوسط ، وسيلة للترفيه وليست طريقة للتربية ، تقدم إلى جانب الترفيه برامج علمية وثقافية وسياسية ، عميقة ومبسطة وجذابة . هذا إلى أن كثيرًا من البلاد ، وخاصة تلك الشمولية ، تفرض إظلامًا (تعتيمًا) كاملاً على أغلب المعلومات المهمة ، سياسية أو اقتصادية أو عسكرية أو معرفية ، وهى معلومات يصبح من الصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، تكوين رأى صحيح أو تحديد فهم سليم ، بغير تحصيلها وتحليلها .

وفى نطاق الموضوع ، فإن أغلب العرب لا يعرفون حقيقة التاريخ أو الفكر أو الواقع الإسرائيلى ، كما أن أكثر الإسرائيليين لا يعرفون ذات

المسائل عن العرب . بل إن التاريخ العام لكل من أبناء الثقافة العربية وأتباع الثقافة اليهودية لم يزل ينقصه الكثير . وعلى سبيل المثال ، فإن اختفاء اللغة الهيروغلوفية (المصرية القديمة) والديموطيقية (لهجتها الأخيرة) انتهى إلى اختفاء كل الجوانب العلمية والمعنوية فى الحضارة المصرية . وقد أدى فكّ شفرة هذه اللغة إلى معرفة الكثير من حضارة مصر القديمة ، بما أثبت وجود روابط كثيرة ومتعددة بين هذه الحضارة وبين اليهودية ، ثقافة وشريعة (وهو ما دللنا عليه علميا فى كتابنا Religion for the Future المسجل فى مكتبة الكونجرس الأمريكية فى يناير ١٩٩٣) .

أما المعلومات الكونية ، فالمعرفة الإنسانية حالاً (حاليًا) صفر منها . ذلك بأن جانبًا من هذه المعرفة ظهر لبعض الحضارات القديمة ، وأهمها مصر ، ثم تنوقل شفاهًا إلى أن اندثر بفعل عوامل كثيرة ؛ وقد أدى فك شفرة اللغة الهيروغليفية القديمة ، واجتهادات بعض العلماء ، إلى ظهور حروف غير متكاملة من هذه المعرفة ، كما يبين – على سبيل المثال – من كتاب The Great Pyramid Decoded أى : حل شفرة الهرم الأكبر ، وكتاب Her-Bak الذى يستقرئ بعض المعلومات الكونية من عقل ووجدان مصر القديمة . وفى الوقت الحالى ، فإن بعض الجهود تحاول استعواض الجهل البشرى بالمعرفة الكونية عن طريق العلم الذى يسمى ParaPsychology أو ما وراء علم النفس ، وهو علم له موسوعة ضخمة ، وله كراسى لدراسته فى جامعات ديوك بالولايات المتحدة ، ولندن ببريطانيا وموسكو بالروسيا ، وليس من شك فى أن وصول البشرية إلى معرفة كونية ، ولو أولية ، سوف يساعدها على تفهم الكثير من مشاكلها ، وإيجاد حلول لها أسلم وأفضل ، ومن هذه المشكلة ذلك الصراع الحضارى بين العرب وإسرائيل .

وفى هذا الصدد ، فإن تقدم علم الفزياء أدى إلى التوصل إلى نظريات مهمة ، منها أنه فيما تحت المستوى الذرى ، فإن الجسيمات Particles تتمتع بتلقائية وذاتية ، وأن ما يبدو لنا يقينًا وحتمًا ، هو فى الحقيقة احتمالات مفتوحة تلعب فيها الإرادة الإنسانية دورًا كبيرًا ، ويتصل فيها كل جزئ – بما فيها الإنسان – بالكون كله . يعنى ذلك أن ما نظنه مشكلات محلية هو فى الحقيقة أمر يتصل بالجميع ، ولا يمكن حله جزئيا حلاً سليمًا .

ذلك موجز لأهم العناصر التى تعوق وتعرقل الوصول إلى حل واضح ونهائى وحاسم للمسألة الفلسطينية ، وللصراع الحضارى بين العرب وإسرائيل ، لم يكن ذكرها تزيدًا لا مبرر لَهُ أو إطنابًا لا فائدة فيه ، بل كان أمرًا مهمًا لوضع كافة عناصر المنظومة جنبًا إلى جنب ، مايظهر منها واضحًا للمراقب ، وما كان خفيًا وراء الأحداث ، يؤثر فيها ويحكم نتائجها ، وإن لم يكن جليًا محددًا إلا بعد التحليل والتدقيق ، ثم التوصل إلى كافة جوانب المعرفة .

إذا استقام ذلك فى الفهم والتقدير ، كانت الخطوة التالية هى استجلاء أسس الشخصية اليهودية والشخصية العربية ، لتحديد دوافع كل منهما فى الصراع بينهما ، وأسلوبها فى التصرف ، ومدى تقبلها للحلول التى تحسم الصراع .

نتيجة لتاريخ طويل من عيش اليهود فى الشتات ، أقلية بين أغلبيات مختلفة ، يتمسكون بشريعة مغايرة لشرائع الآخرين ، ويتشربون ثقافة قد تبدو للغير غامضة أو سرية ، فقد وقع عليهم اضطهاد ثقيل ، ربما شارك

بعضهم فى استجلابه بتصرفات خاطئة ، وكانت النتيجة أن تكون لديهم شعور عميق بعدم الأمن ، على المستوى الفردى والجماعى ، سواء بسواء . وقد ظلوا طوال فترة الشتات ، أكثر من خمسة وعشرين قرنًا ، يؤمنون بأن الرب سوف يرضى عليهم ويزول غضبه عنهم حين يُعيدهم إلى أرض فلسطين ، حيث يقيمون وطنًا لهم ، أو دولة عندما شاع نظام الدولة الوطنية منذ القرن التاسع عشر ، ويعيدون تأسيس الهيكل المقدس ؛ وفى هذا القرن الأخير ، نشأت الصهيونية كنظرية سياسية (أيديولوجية) لليهودية ، تعمل على إعادة إقامة دولة لليهود . ومع الوقت ، ومداعبة الآمال ، واستغلال الظروف ، صارت الصهيونية أيديولوجية اليهود عامة ، عدا نُدْرةً منهم . وبدأ اليهود جميعا فى إنشاء الدولة ، بالهجرة أو بالمال أو بالنفوذ ، بعضهم يتعلق بذلك على أساس دينى ، وأكثرهم يقوم به على أساس تاريخى . ذلك بأن بعض اليهود يرون أن أرض فلسطين كلها هى أرض الميعاد التى وهبها الرب لهم منذ عهد أجدادهم ، وإلى امتداد أحفادهم ؛ بينما يرى آخرون أن حقهم على هذه الأرض كلها حق تاريخى ، بدأ منذ دخل إليها بنو إسرائيل الأوائل ، ثم أقاموا فى الشمال دولة إسرائيل ، وعاصمتها السامرة ، وأقاموا فى الجنوب دولة يهودا وعاصمتها أورشليم ؛ وهم يضيفون إلى ذلك أنه منذ أخرجوا من أراضيهم لم تقم فى أرض فلسطين دولة قط ، ولم تكن القدس (أورشليم) عاصمة لأى دولة .

تجمع اليهود إذن على مشروع واحد ، هو إنشاء دولة إسرائيل التى تكون أورشليم (القدس) عاصمة لها ، وتحتل كل أرض فلسطين ، وسواء عن اعتقاد دينى أم على تقدير تاريخى فإن الجميع اعتنقوا الصهيونية كأيديولوجية سياسية . والأيديولوجية – كما هو مستقر علميًا – تقوم أساسًا

على مبدأ الإطلاق ، بمعنى أنها تؤمن أن ما تعتقد فيه مُطْلَقٌ لا مطعن عليه ، ونهائى لا جدال فيه ، بهذا كانت ضراوة أعمال العنف والإرهاب التى قامت بها بعض المنظمات الصهيونية العسكرية ضد العرب المسلمين والمسيحيين ، لها فى المنطق اليهودى ما يبررها لهم ، فقد كانوا — فيما اعتقدوا — ينفذون أوامر الرب أو كانوا يحققون وضع التاريخ . وإذ كان اليهود — على مدى العصور — قد تمهّروا فى ستر أهدافهم وتمرسوا على طىّ أغراضهم ، طالما كانوا يعيشون فى جو معادٍ ويقيمون مع جماعات غير مصادقة ، فإنهم درجوا فى كل ما يتصل بإنشاء واستقرار الدولة على إخفاء أهدافهم البعيدة وتمويه أغراضهم الحقيقية ، فكانوا يعدون للحرب وهم يتكلمون عن السلام ، ويعملون على نقض قرارات المجتمع الدولى (الأمم المتحدة ومجلس الأمن) وهم يطالبون بتنفيذها .

أما العرب ، وهم الطرف المقابل فى المعادلة ، فقد كان من نتيجة الاحتلال الأجنبى الطويل لبلادهم ، وأسلوب حياتهم القِبَلى الذى لم يتغير كثيرًا ، أن أصبح لديهم شعور عميق بالتخوف من الأجنبى وعدم الاطمئنان للغريب ، وهم يرون أن المستعمرين قد احتلوا بلادهم طويلاً لنزح ثرواتها ، وأنهم مازالوا يعملون من أجل هذا الهدف . وقد كان زرع إسرائيل فى وسط العرب اتجاهًا مقصودًا من الاستعمار الغربى لفصل جانب من العرب عن جانب آخر ، ودق وتدٍ للغرب فى صميم المجتمع العربى . والعرب الذين لم يُنسب إليهم اضطهاد لليهود ، منذ قامت الحضارة الإسلامية وحتى أنشئت دولة إسرائيل ، يعجبون لفكرة الاضطهاد هذه ، وربما لا يستسيغونها ، ولا يرون أنها يمكن أن تكون سببًا لإنشاء دولة يهودية على أراضيهم ، وبعد إبعاد سكانها من مسلمين ومسيحيين . ويرى العرب

أن وعد الله عن الأرض تحقق وتنفيذ ، ثم انتهى عندما نكث اليهود عهدهم مع الله ، وأن فلسطين أرض لأبنائها الذين عاشوا عليها قرونًا طويلة ، قبل ظهور الصهيونية ، سواء كانوا مسلمين أم مسيحيين أم يهودًا . غير أنه نتيجة أن العرب « ظاهرة صوتية » وأنهم يتصرفون كما لو كان الكلام بديلا عن العمل ،وأنه كلما علا الصوت زاد إرهاب العدو وتحقق ما يريدونه بقوة ، نتيجة لهذه الظاهرة غير السوية ، فقد تكلموا بعنف وارتفعت أصواتهم بشدة ، يشجبون أعمال العنف والإرهاب ، ويرفضون قرارات المجتمع الدولى ، ويتوعدون اليهود بإلقائهم فى البحر ، وهى أمور لم تُفدهم أبدًا ، وإنما فرّغت قواهم وبددت طاقاتهم ، وصورت لليهود أن الكلام حقيقة سوف تقع ، وأن الصراخ طوفان سوف يغرقهم ، فزاد ذلك من إحساسهم بعدم الأمان .

وقد أدت الأيديولوجية اليهودية (الصهيونية) إلى مقابلتها بالأيديولوجية العربية (القومية العربية) ، التى وطّأت بشموليتها واتجاهاتها المطلقة إلى أيديولوجية أخرى إسلامية ، هى الإسلام السياسى ، التى تقوم على النمط الشمولى وبأنها تمثل المطلق .

بهذا انتهى الوضع إلى صراع بين أيديولوجيات تؤسَّس على المفهوم الدينى أو تستوى على الحق التاريخى ،فإذا كان اليهودى يمارس الحرب أو يباشر الإرهاب دفاعًا عن حق يراه مقدسًا ، فإن العربى يهدد بالحرب وينفذ عمليات انتحارية إثباتًا لحق يراه مقدسًا كذلك . والصراع بين الأيديولوجيات المطلقة ، كما النزاع بين الآراء المقدسة ، ينشأ من التطرف ثم يزيد التطرف بحيث يصعب تمامًا أن يحدث فيه تقارب لوجهات النظر

أو أن تتحقق منه تسوية بين الطرفين ، مما يقيم ويغذّى حالة « اللا- واللاسلم » أمدًا طويلاً ، حتى تتحلل النظريات المطلقة تدريجيًّا ، وتتة المذاهب الجامدة شيئًا فشيئًا .

تداعت الأحداث وتسلسلت الوقائع حتى أوجدت حالاً (حاليا) ثقة حادة ومستعصية بين العرب وإسرائيل ، ذلك أن العرب من ـ التجربة الواقعية ، منذ وعد بالفور حتى الآن ، صاروا على يقين كامل أن إسرائيل تهدف وتعمل على الاستيلاء على كل أرض فلسطين ، فشيئًا ، وقضمة بعد قضمة ؛ ولعلها بعد ذلك تسعى إلى تحقيق شع القائم « من النيل إلى الفرات : أرضك يا إسرائيل » . وفى سبيل الو إلى هذه الغاية فإنها تتذرع بالأمن الذى يقتضى الاحتفاظ ببعض الم المجاورة من بلاد أخرى : كمرتفعات الجولان أو الشريط الحدودى جنوب لبنان ؛ لكن دواعى الأمن قد تتواصل وتمتد فإذا بإسرائيل ت إلى هذه المناطق مناطق مجاورة لها ، وهكذا دواليك . وفيما يتعلق بالن أوسطية فإن كثيرًا من العرب يرون أنها صيغة سياسية ماكرة لتقو الجامعة العربية وتفكيك منظومة التعاون العربى ، وإدخال جسم أو أج غريبة ثقافيًا ومعتقديًا ولغةً إلى الكيان العربى ، لجذب بعض بلاده علاقات خاصة ، قد لا يكون فيها تكافؤ أو توازن ، وهى من ثم ، فكرة الشرق أوسطية ، تزيد من الشكوك ولا تفيد فى الحلول .

واليهود من جانبهم ، ومما وقر فى أسماعهم من ظاهرة الع الصوتية ،وما استكنّ فى نفوسهم من تهديداتِهم الكلامية ، صاروا لا يأم لهم أبدًا ، وهم أصلا غير آمنين ، يعتقدون أن تمكين الفلسطينيين من إن

دولة لهم سوف يدفعهم إلى طلب مناطق أخرى ، ثم مناطق تالية ، حتى ينتهوا إلى أن يطلبوا ويعملوا على تقويض إسرائيل نفسها لاستعادة أرضهم السليبة .

فى هذا الجو المفعم بعدم الأمان وعدم الثقة يصعب جدًّا إيجاد حلول على مستوى الشعوب ذاتها . فلربما اتفقت حكومات فى معاهدات سياسية أو عسكرية تهدف بها إلى منع النزاع المسلح ، أو تأجيله أطول فترة ممكنة ؛ لكن هذا السلام الرسمى يظل على الدوام قلق غير مستقر ، يمكن أن ينقلب رأسًا على عقب بانتخاب حكومة جديدة كما حدث فى إسرائيل أخيرًا ، أو برصاصة تطلق على رئيس أو زعيم ، كما كان مناحم بيجين يردّد دائمًا .

ومن هذا المنطلق ، فإن التطبيع بين الشعوب لن يكون أمرًا قريب المنال ، مادامت أزمة الثقة قائمة وحادة ومستعصية . قد تنشأ علاقات فردية بين أشخاص من الجانبين ، لسبب أو آخر ، لكن التطبيع الاجتماعى المتشعب العلاقات والمتعدد المستويات لا يمكن أن يتحقق إلا بعد عمل جاد لإزالة أزمة الثقة بين العرب وإسرائيل ، كيما يحل محلها ضرب من الثقة وقدر من الأمان . وليس العبء فى ذلك على العرب وحدهم ، بل إن إسرائيل هى الطرف المساءل أولاً عن تبنى سياسة واقعية ، لا تقوم على مصلحة طرف مفرد ، وإنما تعمل على اكتساب ود الشعوب ومد جسور الثقة وبذر بذور التعاون ؛ بلا رغبة فى الانتشار السرطانى ، ولا عمل للتوسع والامتداد ، ولا تصرف فيه عدم الاحترام لمشاعر الغير وتاريخهم وحقوقهم الطبيعية .

وعندما تزول أزمة الثقة يمكن توطيد معايير جديدة للسلام ، لأن الحرب كارثة على الجميع ، سوف لا تقتصر نارها على الشرق الأوسط ،بل من المرجح أن يمتد لهيبها بعيدًا فى المكان وطويلاً فى الزمان .

٩

الحل الواقعى

يخطئ من العرب من يطلب من مسئول أو سياسى يهودى إسرائيلى أن يُعنى بمصالح العرب أو أن يحقق لهم أهدافهم ، كما يخطئ من اليهود من يطلب من مسئول أو سياسى عربى أن يهتم بمصالح الإسرائيليين أو أن يساعدهم على تحقيق آمالهم . فمن الطبيعى أن يُعنى اليهودى الاسرائيلى بمصالح أمته ، وأن يهتم العربى بصوالح أمته . لكن من مقتضى العقل ، وحسن التدبير ، والنضج السياسى أن يدخل فى تقدير أى مسئول أو سياسى أن تحقيق مصالح أمته ، على المدى البعيد ، لا يمكن أن يحدث حقيقة إذا كان هناك تحيّف على حقوق الآخرين أو نفى للغير ممن يجاور أمته أو يرتبط بها أو يتداخل معها بأى شكل ، سياسى أو أمنى أو جغرافى أو اقتصادى أو ما إلى ذلك . ففى العصر الحالى أصبحت المصالح الدولية متداخلة ، ومصائر الأمم متشابكة ، وحيوات الناس مترابطة . من هذا المعنى ، ينبغى على المسئول أو السياسى اليهودى الإسرائيلى أن يدرك تماما أن مصلحة أمته لن تتحقق إلا إذا راعى بصورة معقولة مصالح العرب وأهدافهم ، كما يتعين على المسئول أو السياسى العربى أن يفهم حقيقة طبيعة الوجود الإسرائيلى ، والظروف الإقليمية والدولية المتعلقة به .

وفى إسرائيل ، يُجمع الشعب اليهودى ، بل ويساعده يهود العالم كله ، وغيرهم من المتعاطفين معهم أو المترابطين بهم بأعمال ومصالح

مختلفة ، على ضرورة استمرار دولة إسرائيل وصيرورتها إسرائيل الكبرى التى تكون أورشليم (القدس) عاصمة لها . ويرى حزب العمل أن أهداف إسرائيل تتحقق عن طريق إقرار سلام مع العرب ، يؤدى إلى تغيير خارطة الشرق الأوسط فلا يكون العرب فيها أمة متجمعة ، وإنما يتداخل فى هذه الخارطة عنصر غير عربى ، هو إسرائيل أولاً وربما تكون تركيا ثانيًا ، وتقوم العلاقة بين الرابطة الجديدة على أساس اقتصادى ، يمكن أن يؤدى إلى نوع من تقسيم العمل أو ضرب من التكامل حين تتخصص كل بلد فى مجال بذاته ، فتكون قوة العمل ، العمالة البشرية – من مصر ، ورأس المال من أموال النفط الخليجى ، والتقنية العالية من إسرائيل ؛ وهو تقسيم ينتهى إلى أن يكون لإسرائيل اليد العليا والعنصر الأهم فى التشكيل الجديد . ويرى تكتل الليكود أنه لا مبرر إطلاقا لأى سلام مع العرب ، لأنه سوف يكون سلامًا وَرَقِيًّا ، يتمزق عند أول عائق ، ويمنع الإسرائيليين من التوسع فى الاستيلاء على باقى أرض فلسطين ، باعتبارها يهودا والسامرا القديمة ، كما أنه قد يخوّل العرب فرصة لمحاولة استرداد أراضيهم التى استُلبت منهم قبْلاً . وفى تقدير هذا الرأى ، أنه لا جدوى من إقامة علاقات اقتصادية مع العرب ، لأن أغلب البلاد العربية ذات اقتصاد هشّ ،وأن التعامل فى النفط باعتباره المنتج الأساسى لكثير من هذه البلاد يجرى فى النطاق الدولى ، كما أن النظام المصرفى العالمى – هو نظام يقع تحت سلطان اليهود – هو العامل المؤثر فى عملة وتجارة وقروض البلاد العربية ، وفى إيداعات الحكام والأفراد فى المصارف الكبرى بأوروبا وأمريكا .

كل من حزبى العمل وتكتل الليكود له رؤية معينة فى مسار الصراع العربى الإسرائيلى ، وفى حل المسألة الفسطينية ؛ وهى رؤية تنبنى على

المصلحة اليهودية أساسًا ، والتغاير بينهما اختلاف فى الأسلوب وتباين فى العمل ، لا يؤثر إطلاقا على الهدف الذى يضع الجميع عيونهم عليه .

يقابل ذلك أنه وقعت فى التاريخ العربى القريب أحداث تستوجب الدراسة وتقتضى التحليل . فالعرب أمة واحدة ثقافيا ، لا جنسيًا ولا عنصرًا ؛ أى أنهم أمة تجمعهم الثقافة العربية تحت مظلة مفردة ، رغم تعدد أصولهم من عربية قحطانية وعربيه عدنانية وأعراب ، وفراعنة وأقباط وآشوريين وبابليين وفينيقيين وبربر ونوبيين .. إلى آخر ذلك ، وقد قامت حركة القومية العربية ، خلال الحرب العالمية الأولى ، لمقاومة الاحتلال العثمانى ؛ ثم اشتدت بعد ذلك فى مقاومة الاستعمار الغربى عامة ، لكن حدث منذ أواخر الخمسينيات أن أدت هذه الحركة إلى قسمة البلاد العربية ، نتيجة اختلاف نظم الحكم ، إلى ما سُمّىّ بالنظم التقدمية وما قيل إنه نظم رجعية . وقد كانت هذه التسمية ، بما صاحبها من حروب أيديولوجية ، من الأسباب الرئيسية التى أدت إلى حرب ١٩٦٧ ، حيث قامت بها إسرائيل الكبرى التى تحتل القدس وتعمل على أن تكون عاصمة لها ، واندلعت حرب ١٩٧٣ لرد اعتبار العرب من هزيمة ١٩٦٧ القاسية ، ولتقويض وضع « اللاحرب واللاسلم » ، بما يسمح بتحريك الأوضاع الجامدة وتحرير الأراضى العربية التى احتُلت بعد ٥ يونيو ١٩٦٧ . ونتيجة لهذه الحرب فقد ارتفعت أسعار النفط عشرة أضعاف تقريبا (من ٤ دولارات فى المتوسط لسعر البرميل إلى ٤٠ دولارا فى المتوسط) مما أدّى إلى تراكم عوائد النفط لدى البلاد الخليجية ، حتى أن بلدًا كالسعودية حصل على تراكم نقدى فى عشر

سنوات يساوى ما وصلت إليه الولايات المتحدة فى مائتى سنة . وكان من نتيجة هذا الثراء الشديد ،والتراكم النقدى الفاحش ، أن اضطرب واقع المنظومة العربية ، واختل التضامن فيها ؛ ذلك أن الوحدة السياسية تقتضى مماثلة فى نظم الحكم ، ومطابقة فى النمَّط الإدارى ، ومقاربة فى عدد السكان ، ومشابهة فى الوضع الاجتماعى ، ومدانية فى الثراء الوطنى ، وموازنة فى الدخل الفردى ؛ وهو الأمر الذى تحقق - إلى حد ما - فى بلاد غرب أوروبا فساعد على قيام الوحدة الأوربية ، بينما اختلف بين الدول الخليجية والدول العربية الأخرى ، فباعد فيما بينها ، خاصة لما أوجده الاختلاف والتباين من مصالح تختلف وتتباين مع مصالح باقى الدول ، فضلا عن التخوف الطبيعى الذى ينشأ عادة بين الثراء والفقر ، وبين الجموع الكبيرة والقلة من الناس .

وعلى سبيل المثال فإن عدد السكان ، والناتج القومى فى كل من دول الإمارات المتحدة ، وقطر ، والكويت ، فى سنة ١٩٩٥ هو كما يلى :

دولة الإمارات المتحدة : عدد السكان ٢,٣٨٧,٠٠٠ مليون فرد ، والناتج القومى ٣٥,٤٧١ مليار (بليون) دولار أمريكى .

قطر : عدد السكان ٥٩٣,٠٠٠ فرد ، والناتج القومى ٧,١٠٦ مليار (بليون) دولار أمريكى .

الكويت : عدد السكان : ١,٤٦٩,٠٠٠ مليون فرد ، والناتج القومى ٢٧,٧٩٤ مليار (مليون) دولار أمريكى .

مفاد ذلك أن عدد سكان قطر أقل من عدد سكان حى شبرا بالقاهرة ،

وناتجهم القومى – من النفط أساسًا – هذا المبلغ الضخم ، وعدد سكان دولة الإمارات المتحدة أقل من عدد سكان مدينة الإسكندرية ، وعدد سكان الكويت أقل من عدد سكان محافظة متوسطة فى مصر .

المرجع (Middle East & North Africa Rebort)

أدى هذا العائد الثروى الضخم والعدد البشرى القليل إلى تضامن الدول الخليجية فيما بينها ، لرعاية مصالحها ، وحمايتها من أى عامل خارجى عنها ، فأسست لذلك مجلس التعاون الخليجى ، الذى كان له رد فعل مماثل فى غرب العالم العربى فأسست دول المغرب (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب) الاتحـاد المغاربى ، وهو أميل إلى ربط بلاده بأوربا الموحدة ، اقتصـاديًا وسياسيًا وثقافيًا ، وبهذا تفسّخ العـالم العربى إلى تكتلات إقليمية . بالإضافة إلى ذلك ، فقد حرصت دول الخليج من جانبها على تأكيد ثقافتهـا الخليجية ونشرها فى المنطقة كلهـا بدلاً من الثقافة العربية العـامة ، مما كان له أثـره فى إحداث انشقاقات ثقافية ، ومراجعات حضارية ، واتجاهات سلفية ، عوّقت المسيرة وعطلت الجهود التى تعمل صادقة لمواجهـة التحدى الحضـارى الإسرائيلى والغربى .

ثم وقعت حرب الخليج الثانية حين غزت العراق دولة الكويت وجاءت إلى المنطقة جيوش متعددة على رأسها الجيش الأمريكى لتحرير الكويت وحماية البلاد الخليجية الأخرى التى كانت مهددة ، وكان من شأن هذه الحرب ، أن استولت إيران (الملالى) على جزر « أبو موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى » ، المملوكة لدولة الإمارات المتحدة ، ثم مساعدة إيران للمعارضة الشيعية فى البحرين ، وأدى ذلك كله إلى

أن تلتفت الدول الخليجية إلى أمنها هى ، الذى بات مهددًا ، وأن تعتبر هذه الأمن أوّلية أولى عن غيره من القضايا العربية الأخرى .

وإذا كانت حرب الخليج الثانية وما صاحبها من إجراءات دولية قد أدت إلى عزل العراق عن الساحة العربية (مؤقتا) ، كما أن الحصار المفروض دوليًّا على ليبيا قد شل فاعليتها ، والسودان فى شبه عزلة لوضع النظام السياسى فيه وصلته بإيران ، وابتداء عزله هو الآخر دوليًّا لمساندته للإرهاب ؛ إذا كان ذلك أمر بعض الدول العربية ، فإنه لا يبقى فى مواجهة إسرائيل ، حقيقة وفعلاً ، إلا دول الطوق : مصر وسوريا ولبنان والأردن وفلسطين ، ولكل من هذه الدول سياسة واتجاه نحو إسرائيل تختلف عن سياسة واتجاه باقى الدول الأخرى من دول الطوق . ما بين مصر وإسرائيل سلام بارد ، ربما أدى إلى بعض التعاون على المستوى الحكومى ، لكنه لم يمتد إلى حالة من التطبيع بين الشعبين ، كما أن تقلقل الأوضاع السياسية يحول دون أن يصبح هذا السلام حارًّا . وسوريا ولبنان لهما على التقريب سياسة واحدة تعمل على إيجاد بؤر قتالية مع إسرائيل لتدفعها إلى تنفيذ مبدأ « الأرض مقابل السلام » فتتخلى إسرائيل عن مرتفعات الجولان وعن الشريط الحدودى جنوب لبنان ، وفى سبيل ذلك ، وبأسلوب البؤر القتالية ، تعاونت سوريا مع إيران لمدها بالسلاح وللتأثير على الجماعات العسكرية الشيعية فى جنوب لبنان ، مثل حزب الله . وبدلا من أن يؤدى هذا إلى حل النزاع والوصول إلى سلام ، فقد عقّد الأوضاع وباعد من السلام ، لخشية إسرائيل والولايات المتحدة وكثير من دول غرب أوروبا والدول العربية من وجود نفوذ إيرانى فى بلاد الشام ، وعلى حدود إسرائيل ، وفى المسألة الفلسطينية . وزاد من تفجر الوضع وجود خلافات بين سوريا وتركيا على تنظيم المياه التى تنبع

من تركيا وتصل إلى سوريا ، واتجاه تركيا لبناء سدود على مياه الأنهار ، لابد أن تؤثر على حصص كل من سوريا والعراق من المياه ؛ هذا بالإضافة إلى شكوى تركيا من أن سوريا تُؤوى قادة حزب العمل الكردستانى وتساعد أعضاءه على القيام بأعمال تخريبية فى جنوب شرق تركيا ، حيث ترغب هذه فى إقامة السدود للنهوض بالمنطقة زراعيًّا وصناعيًّا . ونتيجة لهذا الخلاف بين تركيا وسوريا فقد عُقد بين تركيا وإسرائيل اتفاق عسكرى يعطى هذه بعض التسهيلات ، التى مهما قيل إنها قليلة أو تدريبية ، فهى ذات دلالة على وجود اتجاه لمحاصرة سوريا بين فكى كلْبتين (كماشة) من تركيا وإسرائيل ، للضغط عليها حتى تحل مشكلاتها مع تركيا أولاً (على الأرجح) فتحل إسرائيل مشكلاتها مع سوريا . وربما كان ما يدعو إسرائيل إلى التباطؤ فى حل الموقف مع سوريا ، أنها ترغب ابتداء فى قيام حالة من التطبيع بين شعبها والشعب السورى مخافة أن تتخلى عن الأرض (مرتفعات الجولان) ولا يحدث سلام حقيقى ، بل يحدث سلام بارد كما هو الحال مع مصر . وبين الأردن وإسرائيل تعاون استراتيجى حكومى كامل ، ربما تطور مع الأيام إلى محور أردنى تركى إسرائيلى ، رغم نفى الأردن فى الوقت الحاضر لذلك . أما فلسطين فالوضع فيها قلق وحرج ويتضمن قنابل موقوتة ، كما يحتوى على تساؤلات كثيرة . لقد كانت الضفة الغربية ، والقدس ، فى أيدى العرب منذ سنة ١٩٤٨ حتى ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ ، فما الذى منعهم من إقامة الدولة الفلسطينية فى هذه المنطقة وإعلان القدس عاصمة لها ؟ لماذا لم يبدأ التفكير فى إقامة هذه الدولة إلا بعد هزيمة ١٩٦٧ ؟ ولماذا لم تعمل منظمة التحرير الفلسطينية ، وغيرها من المنظمات ، بالتعاون مع الفلسطينيين المقيمين فى شتى أنحاء العالم ، وهم على درجة

عالية من الثراء ، على تجديد البنية الأساسية Infra Structuer فى الضفة الغربية ، فتركتها حتى صارت خرابًا ، وتركت الفلسطينيين ، الذين كانوا حتى نهاية الأربعينيات من أكثر الشعوب العربية تعليما وثقافة ، بغير تعليم جدّى عصرى منظم ، ودون إنشاء هياكل اقتصادية متطورة ، مما قضى على أكثر من جيل منهم بالبطالة والتشرد ، فاكتفوا بقذف الإسرائيليين بالحجارة ، بدلا من أن يعارضوهم بالعلم ويتحدّوهم بالحضارة ؛ بل ودفعت كثيرا من الفلسطينيين للعمل داخل إسرائيل نفسها لخدمة الاقتصاد الإسرائيلى والإدارة الإسرائيلية ، والمساعدة فى بناء المستوطنات اليهودية ، بحيث إن أرادت إسرائيل أن تضغط عليهم أغلقت فى وجوههم منافذ العبور للعمل فيها ، فتسوء حالة الفلسطينيين الاقتصادية ويجأرون بالشكوى من الحصار الذى تضربه عليهم إسرائيل ، وهو حصار يمنعهم من العمل داخلها وخدمة أهدافها ! ؟

كان من شأن هذا الوضع المتدهور وطنيا وإنسانيا ، وانهيار الاتحاد السوفييتى ، وزيادة مدّ الأيديولوجية الإسلامية ، أن انقسم الفلسطينيون أنفسهم بين فريق يؤيد السلام مع إسرائيل ، ويوافق على التفاوض معها ويعمل على إنشاء الدولة الفلسطينية مرحلة إثر مرحلة ؛ وفريق آخر يرفض ذلك كله ، ويصر على الشعارات القديمة بضرورة تدمير دولة إسرائيل واستعادة أرض فلسطين المغتصبة ، وبينما تُقام أبنية وأجهزة الدولة الفلسطينية فإن الفريق المعارض يمارس أعمالا عسكرية لتنفيذ أهدافه التى تضع عراقيل أمام السلطة الفلسطينية نفسها ، كما أنه يرتّب أعمالاً انتحارية داخل دولة إسرائيل ذاتها ، وفى القدس وتل أبيب ، مما أثار الإسرائيليين وفجر شعورهم الأساسى بعدم الأمن ؛ هذا فضلا عن استثارة كثير من الدول والناس -

فى كل أنحاء العالم – من أعمال رأوها أعمالاً إرهابية ضد مدنيين مسالمين ، وتابع هذه الأعمال ضرب شمال إسرائيل ، من أعضاء حزب الله بجنوب لبنان ، بقذائف ذات صوت عال وبغير فاعلية حقيقية ، هجرّت سكان قرية واحد (كريات شمونة) وأحدثت تلفيات محدودة وإصابات بسيطة ، فكان رد فعل إسرائيل عنيف بضرب الجنوب اللبنانى مما أدى إلى تهجير ٤٠٠,٠٠٠ مواطن من مساكنهم وإلى قتل كثيرين وحدوث مذبحة قانا .

بهذا يكون التطرف على الجانبين قد كسب الجولة وتسيّد الواقع ، المتطرفون اليهود يريدون فلسطين كلها أرضا لدولتهم ، يكون فيها الفلسطينيون أقلية ، لا صوت لها ولا وزن ؛ بينما أن المتطرفين الفلسطينيين يريدون تقويض دولة إسرائيل واستعادة كل أرض فلسطين . ومن الواضح أن كلا الاتجاهين غير عملى على الإطلاق ، بل وينظر إلى المستحيل ، خاصة فى الظروف الدولية المعاصرة ؛ وإن كانت أهداف اليمين اليهودى يمكن أن تتحقق جزئيا ، من خلال صيغ ملتوية وتحالفات انتهازية ، وفى ظل الوضع العربى المتهرّئ . وهكذا أدى التطرف إلى صعود كتلة الليكود اليمينية المتطرفة إلى كراسى الحكم ، وإعلان برامج متشددة ، لا يمكنها أن تتراجع عنها بسهولة ، ولا يُتصور حدوث تعديله لها فى المدى القريب ، إلا إذا تغيرت الظروف والأوضاع داخل إسرائيل نفسها . وعلى العكس من ذلك فإن نجاح حكومة الليكود فى تحقيق أهداف استقرار الأمن ، والتمسك بالأراضى المحتلة ، وزيادة المستوطنات ، وإحكام القبضة على القدس ، قد يؤدى إلى استقطاب كثير من اليهود لتأييدها .

الواقع العربى إذن يحول دون إجماع على رأى واحد أو الاتفاق على

خطة بذاتها ؛ ذلك أن لكل دولة سياسة خاصة بها ، تحمى مصالحها وتحقق أمنها ، ولا تتلاقى هذه السياسات عند هدف محدد أو لدى أسلوب موحد ؛ بل إنها فى كثير من الأحيان تتقاطع وتتصادم . ولربما تَحدُث لقاءات بين القادة ، وهى لقاءات قد تتسم بالود العربى وكرم الحديث التقليدى ، لكن ذلك غير كاف ولا يمكن أن يؤدى إلى فاعلية حقيقية وعمل جدى ، وعلى ما يقال عادة ، فإن العرب مثل جُوال من البصل ، كله رءوس . وبهذا يصعب الالتفاف حول قيادة واحدة أو اتباع أحد لغيره ، مهما يكن حكيم الرأى رشيد التصرف . وقد عملت العناصر السلبية فى الثقافة العربية — مما سلف بيانه — عملها فى اضطراب الموقف العربى ، فالتطرف من جانب ، والاستعاضة عن الفعل بالقول ، لهما أبلغ الأثر فى عدم التوسط فى التصرفات وفى عدم الالتجاء إلى العمل الفعّال اكتفاء بالحديث عنه والصراخ بشأنه ، هذا فى حين أن اليهود فى إسرائيل أخلاط متنافرة ، وربما كانت متنافرة ؛ لكن الثقافة اليهودبة التى لا تنزع إلى التفاخر بل تعمل فى صمت ، والفهم الذى أدرك أن حقيقة الصراع مع العرب أنه صراع حضارى . هذا وذاك أوجدا قدرًا مشتركًا من التفاهم اتفق عنده الكثير وتلاشت منه التناقضات ، ففى الوسط الحضارى يمكن التفاهم على كل شىء ، وفى النهج البدوى أو البدائى لا يمكن الاتفاق على أى شىء .

وعلى الرغم من أن صراع العرب مع إسرائيل ، ومع الغرب ، هو صراع حضارى أساسًا ؛ وأن مصر بتكوينها البشرى المرشّد وماضيها الحضارى الطويل ، وتراثها الإنسانى المستنير ، هى المؤهلة أصلاً لقيادة العرب فى هذا الصراع الحضارى ، فإن بعض الجماعات وبعض النظم وبعض الأجهزة تعمل جاهدة على تشويه التاريخ المصرى القديم زعمًا بأنه

تاريخ وثنى ، دون دراسة له وبغير علم عنه ، مع أن هذا التاريخ مفخرة للإنسانية كلها ، بأى معيار وبكل مقياس ، فى الفكر الدينى وفى الأساس العلمى وفى النظام الخلقى . وهو رصيد ضخم للعرب كما هو كنز كبير لمصر . هذا فضلاً عما تتبعه هذه الجهات من تقويض الجهد المصرى للاستنارة منذ عصر محمد على ، وتعقّب رموزه وقادته لتحطيمهم ، واحدًا واحدًا ؛ وتلويث أعمالهم ، عملاً بعد عمل ، وهم بذلك يساعدون على فشل العرب فى معركة التحدى الحضارى التى لايمكن فيها النصر بفصل التاريخ وفصم الحقيقة ومنع العقل وقمع الفكر .

لقد أثبت العرب فى العصر الحديث ، ومن خلال المسألة الفلسطينية أنهم شعب الفرص الضائعة الذى لايعرف مصلحته إلا بعد فوات الأوان ، وشعب العقلية الغائمة التى لاتستطيع أن تحدد مقطع النزاع ؛ ذلك بأنهم يقبلون بعد الأوان ماكانوا قد رفضوه من قبل وفى وقته ؛ وأهم مثال على ذلك أنهم بعد هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ أصبحوا يطالبون دوْما بعودة إسرائيل إلى حدود ما قبل ٥ يونيو ، دون أن يتنبهوا إلى أنهم بذلك يدينون أنفسهم ويثبتون عبثيتهم ، إذ يتساءل العالم : وفيم كان صراخ العرب قبل ٥ يونيو ؟ ولم كان ذلك ، حتّى انتهى الأمر إلى أن يطالبوا فقط بالعودة إلى الحدود التى كانوا عليها فعلاً قبل هذا التاريخ ! ؟ وقد رفض العرب مبدأ « الأرض مقابل السلام » مع أن قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الذى وافقوا عليه ينبنى أصلاً على هذا المبدأ ، وذهبوا إلى معارضة مصر ومقاطعتها ومحاربتها سنة ١٩٧٩ لأنها قبلت الصلح مع إسرائيل على أساس هذا المبدأ ، واستردت بالفعل أرض سيناء التى كانت قد احتلت فى يونيو ١٩٦٧ ، ثم عاد العرب ، وأولهم السلطة الفلسطينية ، يطالبون سنة ١٩٩٦ بتطبيق هذا المبدأ .

العرب منذ البداية أخطئوا فى إدراك أساس الصراع مع إسرائيل ،

وأساءوا اتباع الأسلوب الأمثل فى حل هذا الصراع ، فلقد وقفوا عند اعتباره نزاعًا عسكريًّا مسلحًا ، واكتفوا بالعبارات الإنشائية والمقالات الملتهبة والعروض العسكرية والصراخ العالى دون أن ينتبهوا إلى أن الصراع صراع حضارى فى الأساس والجوهر والوسائل ، وأن الكلام بغير انبعاثة حضارية خيانة للقضية ، كما أن أى صدام عسكرى وأى عمل إرهابى وأى فعل انتحارى ، لايكون ضمن إطار الصراع الحضارى ذاته ، لازمًا له ومفيدًا فيه ، يعمل على تصفية القضية لصالح الخصم ، ويقدم له أسباب النجاح الدائم وعوامل النصر النهائى .

لقد تداعت الأحداث حتى وصلت إلى وضع صعب وظرف خطر ، ساد فيه التطرف وغلب . والتطرف يغذى التطرف ، وبهذا سوف تعلو موجات التطرف على الجانبين وتشتد ، كل يريد الأرض والسلام ، وربما لن يهدأ أحد فى الأرض ولن يأمن أىٌّ بالسلام ؛ ذاك أن اشتداد التطرف سوف ينفى سبل التفاهم المتعقل وطرائق التفاوض العملى ، وينتهى إلى مواجهة حادة بين الأيديولوجية اليهودية (الصهيونية) ، والأيديولوجية الإسلامية (الإسلام السياسى) ينزلق بالنزاع إلى مفاهيم دينية ويستغل فى المواجهة مواضيع التراث المغلوطة ، فتشتعل حروب دينية تنتج صيغًا ومقولات وشعارات سوف لاتقتصر على الشرق الأوسط ، بل من المرجح أن تنتشر فى كل أنحاء العالم وتصبح قواعد مؤثرة للجماعات الإسلامية (ذات الأيديولوجية) . وفى المواجهة المترجحة سوف تلجأ الأيديولوجية اليهودية إلى أعمال حربية منظمة فى حين تلجأ الأيديولوجية الإسلامية إلى أعمال عسكرية عشوائية وأفعال فردية انتحارية ، فى أكثر من مكان . وإذ كانت الظروف الدولية والمفاهيم العالمية ترى فى الأعمال العسكرية العشوائية وفى

الأفعال الفردية الانتحارية أعمالاً إرهابية ، تربطها بالأعمال الإرهابية التى حدثت وتحدث فى مصر والجزائر والسعودية والبحرين وفرنسا والولايات المتحدة وغيرها – دون إجراء تمييز أو تحديد تفرقة بينها – فإن النتيجة سوف تكون سلبية على المسلمين وعلى القضية الفلسطينية لمدى طويل جدًا .

على العرب أن يعملوا متضامنين ، ما أمكن ، على محاولة إيجاد حلول سياسية للمسألة الفلسطينية ، ولأوضاع الأراضى المحتلة بعد ٥ يونيو ١٩٦٧ ؛ لكن عليهم أن يحددوا مقطع النزاع وفيصل الصراع بينهم وبين إسرائيل ، وأنه صراع حضارى فى الأساس والجوهر والوسائل ، فيعملوا جادين على مقابلة التحدى بالاستجابة له ، والالتحاق بالحضارة العالمية على أسس متكافئة ، ويوم ينجحوا فى ذلك فسوف تُحل كل مشاكلهم مع إسرائيل ، ومع الغرب ، تلقائيًا ، وبهدوء وفاعلية . وفيما عدا ذلك فسوف يظل الصراع عنيفًا حاميًا محتدمًا ، يكسب فيه الجانب الذى يعتصم بالحضارة ، ويخسر فيه الجانب الذى يكتفى بالكلام .

فهرس

رقم الإيداع	١٩٩٧/٩٤٨٨	
الترقيم الدولى	977-02-5450-9	ISBN

١/٩٧/١٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

هذا الكتاب

يعالج قضية العرب المصيرية فى القرن العشرين .. وربما فى القرن الذى يليه .. ألا وهى قضية الصراع الحضارى بين العرب وإسرائيل . ومعالجة هذا الموضوع تتأثر بعمق ثقافة الكاتب الذى بذل جهدا كبيرا لتكون موضوعية وأقرب ما تكون إلى المحايدة وهى مناسبة لفتح الأبواب إلى مواضيع كثيرة وشق الطرق إلى اتجاهات متعددة للبحث والفهم

دار المعارف

٠٢٤٧٤٧/٠١